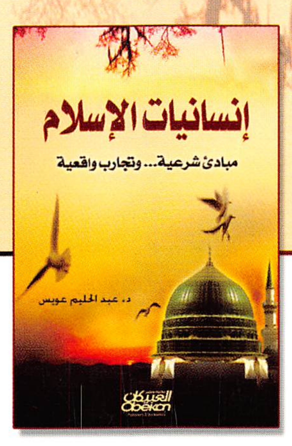


إنسانيات الإسلام

مبادئ شرعية... وتجارب واقعية

د. عبد الحليم عويس

مكتبات ونشر
العبيكان
Obekan
Publishers & Booksellers



توجه الإسلام في خطابه إلى الناس كافة، ولم يجعل للمسلمين ميزة خاصة على غيرهم إلا بالتقوى والعمل الصالح، كما علمهم أنهم ليسوا شعباً مختاراً لعوامل عنصرية جنسية.

ومن هذا المنطلق العقدي أبصر المسلمون طريقهم، فعاملوا الناس جميعاً في عصور تمكنهم معاملة بالغة السمو في المستوى الإنساني.

وصفحات إنسانيات الإسلام لا تنتهي؛ لأنها شملت كل مجالات الحياة، تراها متألقة في مجال النظرة للكون وللإنسان عموماً، والنظرة للمرأة والأسرة والتعامل مع أهل الذمة، أما في مجال الحروب فقد سمت إنسانيته فوق ما يتصور البشر ناهيك عن سائر التشريعات. إن هذا الكتاب يضم هذه الصفحات المشرقة لإنسانيات الإسلام اقتبسها المؤلف لتكون دليلاً دامغاً وتأكيداً لحقيقة إنسانية هذا الدين الذي جاء رحمة للعالمين.

ويسر مكتبة العبيكان أن تنشر هذه الصفحات خدمة لدينها، وإسهاماً في إظهار نفائس الإسلام لدحض دعاوى المبطلين.

ISBN:9-944-40-9960



موضوع الكتاب: الإسلام - الإنسانيات

موقعنا على الانترنت:

http:/www.obeikanbookshop.com

إنسانيات الإسلام

مبادئ شرعية... وتجارب واقعية

المؤلف

د. عبد الحليم عويس



 مكتبة العبيكان، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عويس، عبدالحليم

إنسانيات الإسلام/ عبدالحليم عويس- الرياض، ١٤٢٧هـ

٢٠٣ص ؛ ١٤×٢١سم

ردمك: ٩-٩٤٤-٤٠-٩٩٦٠

١-الإسلام ٢- الإنسانيات أ - العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٠٧ / ١٤٢٧

ردمك: ٩-٩٤٤-٤٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٤٠٧ / ١٤٢٧

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م

الناشر



الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمـــز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي هذه الصفحات

■ صفحات إنسانيات الإسلام لا تنتهي....!!.

■ فالإسلام «في خطابه» يتجه إلى (الناس) و(بني آدم) و(العالمين)!!

■ والمسلمون في صلواتهم -فرائض ونوافل- يقرؤون في كل يوم عشرات المرات سورة الفاتحة التي تُستهل بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾... وهم عندما يختمون القرآن يقرؤون سورتي المعوذتين، مستعيذين برب (الناس) ورب (الفلق)... فإلههم هو (رب الكون والحياة والناس جميعاً) وهم بين يديه (عبيد).. ككل الناس، لا يتمتعون بمنزلة خاصة، إلا إذا استوفوا شروط (التقوى) خضوعاً لمقياس: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾...

■ وليسوا شعباً مختاراً لعوامل عنصرية جنسية، بل هم ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ لأداء مهام ربانية إنسانية... وإذا لم يؤدوها -حتى ولو كانوا من آل بيت النبوة - استحقوا العقاب، في الدنيا والآخرة، فلو أن فاطمة بنت محمد عليه السلام سرقت لقطع محمد يدها.. (هكذا قال إمامهم وقدوتهم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم)!!.

■ ومن هذا المنطلق العقدي، أبصر المسلمون طريقهم، فعاملوا الناس كل الناس في عصور سيادتهم وتمكنهم - معاملة بالغة السمو في المستوى الإنساني..

■ وكان القضاء لا يحابي.. حتى ولو كان المحكوم عليه هو (أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه)..!!

■ وكان (المحتسب) كذلك مثل القاضي لا يحابي!!

وكان مجال الحوار الفكري (مفتوحاً) لكل أصحاب الآراء شريطة ألا يكون هدماً للمجتمع أو خيانة حضارية للأمة أو دينها.. وقد بلغ هذا الانفتاح الفكري أبلغ مرآة حين كان (أهل الذمة) ينشرون كتبهم يدافعون فيها عن دينهم ويهاجمون بعض تعاليم الإسلام، فلا يتعرضون لقمع، وإنما ينبري العلماء المسلمون للردّ عليهم كما فعل (ابن حزم) في ردّه على (ابن النغريلة اليهودي)..

■ وأما أماكن عبادة غير المسلمين فهي أماكن لها احترامها فلا يؤذى ساكنوها في سلم أو حرب.. كما أنه -كذلك- لا تقتل امرأة ولا شيخ عجوز ولا طفل في معركة ما لم يقاتلوا..!!.

■ ولئن كانت هناك بعض الأخطاء فهي ردود فعل ليتجاوز الآخرين.. كما أنها بالإمكان أن تكون (شذوذاً) كذلك في سلوك المسلمين، وحكمها حكم كل شذوذ!!.

■ وفي كل مجال.. تجد إنسانيات الإسلام متألقة.. في مجال النَّظرة للكون، وفي مجال النّظرة لكل الإنسانية (بني آدم) وفي مجال النظرة للمرأة والأسرة.. وفي التعامل مع أهل الذمة، وفي الحروب.. وفي سائر التشريعات، فليس بالقانون والحب يستقيم أمر الحياة، وإنما

(بالحب) (والفضل) و(الإيثار) مع العدل تتحقق «الإنسانيات» اللائقة بدين الإنسانية ذلك الدين الذي حصر الله رسالة نبيّه محمد في قوله تعالى له: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾..

للعالمين من إنس وجان وطيّر ونبات وحيوان..

فكيف تكون رحمته عليه السلام بالإنسان؟!!.

إنها صفحات من المبادئ والمواقف اقتبسناها تأكيداً لحقيقة (إنسانية الإسلام).

د/ عبد الحليم عويس

إنسانية الإسلام

في النظرة إلى الكون

الإنسان والكون بين الإيمان العلمي والإلحاد الخرافي

توجد في الساحات الفكرية المعاصرة تيارات ثلاثة تؤرخ للعلم وتطوره، فأما أولاها: فهي التي تتكلم عن العلم بكثير من الحياد، فلا تربطه بأفكار مسبقة ولا تزعم أنه يكفي الإنسان وحده، بل تكاد تعترف -ضمنا وليس صراحة- بأن الإنسان يحتاج مع العلم إلى الدين والأخلاق.

وهناك مدرسة ثانية قوية -وإن لم تكن كبيرة الحجم- تؤمن بأن (العلم يدعو إلى الإيمان) وبأن (الإيمان يتجلى في عصر العلم)، وبأن (الإنسان ذلك المجهول) لا يعلم مفاتيحه إلا الذي خلقه، ولن تتحقق سعادته إلا بخضوعه للمنهج الرباني الذي أنزله الله الذي يعلم من خلق، وهو (وحده) اللطيف الخبير!!.

وهناك منهج ثالث متهافت، لكنه مدعَّم من أبواق الإعلام الصهيونية والإلحادية في العالم، ويحاول أصحاب هذا الاتجاه الوقيعة بين العلم والدين، ويزعمون أن الإنسان يستطيع أن يقوم وحده، وأنه ليس في حاجة إلى قوة أخرى تساعده. وهؤلاء يحاولون أن يخفوا وجوههم الحقيقية في بعض ما يكتبون، فيستعملون مصطلحات غائمة، لا يدرك ما وراءها إلا الذي يعرف أهدافهم وأساليبهم.

فمن المصطلحات التي يتسترون خلفها رفضهم مبدأ (العلِّية) الكونية تحت راية أن نظرية المعرفة (الابستمولوجيا) ترفض اضطراد الطبيعة (وكأنه لا قوانين)، وبالتالي ترفض العلِّية أو الثبات في القوانين، وتؤمن

بمبدأ المصادفة، أو كما تقول الدكتورة / يمنى طريف الخولي، في كتابها الذي أصدرته سلسلة (عالم المعرفة) بالكويت تحت عنوان «فلسفة العلم في القرن العشرين» تقول الدكتورة في كتابها هذا [١]:

«لقد ارتدت المصادفة ثوبا قشيبا، وتخلصت من أدران جائزة، لحقت بها في عهود يقين العلم الحتمي، الذي كان يفسر المصادفة والاحتمال تفسيرا ذاتيا، أي كان يرجعهما إلى جهل الذات العارفة وعجزها عن الإحاطة بعلل الظاهر. علمتنا الميكانيكا الموجبة ومعادلات «إبرفين شرودنجر»، أن المصادفة والاحتمال تفسيران لصميم طبيعة الظاهرة موضوع الدراسة، لقد أصبح الاحتمال موضوعياً.

وتتابع الدكتورة تحليلها (اللاعلمي).. فتقول: «والمحصلة أنه قد تبخر اليقين في عالم العلم، حتى شاع القول الدارج: إن العلماء ليسوا على يقين من أي شيء، ويكفي أن العوام على يقين من كل شيء».

وكلام الدكتورة المذكور مجرد نموذج من نماذج التعمية والتورية والألفاظ الزئبقية، التي تخفي وراء مضامينها الجحود بالله، والإيمان بالعبثية والمصادفة والاحتمال واللاقانونية في الكون، بديلاً عن (العناية) و(الرعاية) و(القانونية) و(السببية) و(العلّية) التي يحكم بها الكون ويسيره بها إلى أن تأتي أوامر بانفراط عقد الكون والحياة، فيقول للجبال الراسيات: كوني صوفاً منفوشاً، ويقول للسماء: أقلعي، ومن ثم يُبَعْثَر ما في القبور ويُحَصَّل ما في الصدور!!.

---

(١): ص ٢٣٠ .

والحق أن العلم الحق غير الموظف لأغراض إيديلوجية قد أسقط الماركسية، كما أسقط هذه الفلسفة العبثية التي تحاول أن تظلم العلم، وتقوده إلى الصدام مع الحقائق الكبرى، التي يقوم الكون عليها:
﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾(١)..

ولقد أصبحت الحضارة الأوربية نفسها تئن من هذا الاتجاه ويرفضه علماؤها الكبار وفلاسفة تاريخها.. وقد ظهر هذا الاتجاه جليا في النصف الثاني من القرن العشرين كله، لدرجة أن الكاتب الهندي الكبير «تقي الدين الأميني» رئيس قسم الدراسات الإسلامية بجامعة عليكره (رحمه الله) رصد ظاهرة انهيار الفلسفة المادية العبثية للعلم في كتاب كامل سماه: (عصر الإلحاد: خلفيته التاريخية ونهايته) كما أن الكاتب الهندي الكبير «وحيد الدين خان» دحض هذا الاتجاه في كتابيه المعروفين «الإسلام يتحدى» و«الدين في مواجهة العلم».

وفي عالمنا العربي دحض هذا الاتجاه -أيضاً- مفكرون كثيرون على رأسهم العلامة / نديم الجسر -مفتي طرابلس لبنان- (رحمه الله تعالى). وذلك في كتابه «قصة الإيمان بين الفلسفة والدين والعلم».

فما بال بعض أدعياء العلم والفكر في مشرقنا المبتلى ما يزالون يجلسون على المائدة الإلحادية والعبثية، مع أن فساد أطعمتها قد وضح لكل ذي عقل وقلب؟!!.

(١) سورة المؤمنون: الآية ١١٥ .

إن نظريات إلحادية كثيرة تلفّحت برداء العلم الغربي كالتطورية الداروينية، والجنسية الفرويدية، والوضعية الكونتية، والمادية الماركسية - قد أسقطها العلم نفسه..

نعم أسقطها العلم الغربي والشرقي على السواء..

فما بال بعضنا يبقى متخلفا حتى في التبعية، ولا يعبأ إلا بالطعام الرديء المغشوش (اللاعلمي واللاعقلاني).. والعلم بريء من ذلك كله.

الإيمان العلمي.. رسالة الأنبياء:

في البداية نورد هاتين الآيتين الكريمتين من كتاب الله، ودلالتهما لا تحتاج لبيان، أما أولاهما فقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١) وأما الآية الثانية فقوله تعالى على لسان الكافرين: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (٢).

ثم نقول:

■ لقد وفر الأنبياء: -عليهم السلام- بدءاً من آدم، وانتهاء بمحمد -خاتم المرسلين- على الإنسان جهوداً كبيرة كان من الممكن أن يقضيها في التيه العقلي والتخبط الفكري، حين علّموه أن لكل شيء سبباً وغاية، وأن وراء كل سبب مسبباً، ووراء كل صنعة صانعاً، وأن هذا الكون - بالتالي- ينعم برعاية صانع خبير عليم حكيم، يدير حركته وفق قوانين، ويدفعه -والإنسان جزء منه- لغايات مرسومة.

---

(١) سورة الروم: الآية ٥٦ .

(٢) سورة الملك: الآية ١٠ .

■ ومع أن تعاليم الأنبياء كثيراً ما كانت تتعرض للضياع والتدخلات البشرية، فإن عقل الإنسان -في عصر الضياع هذا- كان كثير التساؤل والحيرة والتأمل.

■ إن حركة الكون المكررة أمامه من ليل ونهار وشمس وقمر ونجوم وعواصف وزلازل، لا شك ستدفعه إلى التساؤل:

١- من يصنع هذا؟.

٢- وكيف يصنع؟.

٣- ولماذا يصنع؟.

■ وفي الواقع البشري الاجتماعي والفردي يجد الإنسان نفسه محاصراً بمجموعة من الظواهر التي تشبه الظواهر الكونية، في ضرورتها وتكرارها.

■ فحاجة الإنسان إلى الطعام حاجة أساسية ومتجددة. لا تنتهي.

■ وحاجة الإنسان إلى الشراب.

■ وحاجة الإنسان إلى النوم.

■ وحاجة الإنسان إلى اللباس والمسكن.

فكل هذه حاجات فردية، تجعل الإنسان يتساءل: هل هو مجموع هذه الحاجات؟ وهل حياته لا تخرج عن نطاق إشباع هذه الجوانب؟.

■ وعندما يصل الإنسان إلى سن البلوغ، ويندمج اجتماعياً، تظهر في حياته حاجات أخرى.

■ حاجته إلى الزواج والأولاد.

■ حاجته إلى البيئة.

■ حاجته إلى المجتمع.

فربما تساءل الإنسان في مرحلة معينة: هل هو رهن هذه الحاجات؟ وهل هو كائن أسري أو بيئي أو اجتماعي؟ وهل يكفي إشباع هذه الجوانب -بعد الحاجات الفردية- لضمان مسيرة الإنسان في الحياة؟ لكن الإنسان عندما تكتمل له حاجاته الفردية وحاجاته الاجتماعية سيشعر بحاجة ملحة إلى نوع آخر من الحاجات.

■ فهذا الإنسان يتميز عن الكائنات الأرضية الأخرى بأنه يحمل (روحاً واعية) ذات تطلع دائم إلى الأشواق العليا.. وإنها لتحس بالسأم والملل - حتى بعد إشباع سائر الجوانب إذا لم تحقق إشباعها في الجانب الروحي.

■ فهل الإنسان كائن روحي؟ على أساس أن هذه ميزته التي ينفرد بها عن سائر المخلوقات الأرضية الأخرى التي تشاركه بقية حاجاته الفردية والاجتماعية؟

لقد أدرك الإنسان هذا منذ ظهر، ومنذ غرست الأديان السماوية - في فطرته ووعيه - هذه الحقيقة الأزلية، وأزالت عنها - بين الحين والحين - كل ما يطرأ عليها من تحريف وتشويه.. ولئن كان الإنسان قد أدرك هذا، فإن هذا الإدراك القائم على أن الله هو الصانع وهو الخالق، ليس كافيا للإجابة عن الأسئلة الملحة التي تطرح نفسها على الوعي البشري الموصول.

إن الإنسان يدرك حاجته اليومية المتجددة للطعام والشراب والهواء والماء والملبس والمسكن، ثم يدرك حاجته الاجتماعية التي يقوم على أساسها كيانه الاجتماعي وبقاء نوعه.. فإلى أي مدى يصل الدور الذي تقوم به هذه الحاجات في استمرار حركته ونموها، وفي ضمان تفاعله مع ما حوله.

وهل هذه الحاجات هدف في حد ذاتها تنتهي رسالته إذا حققها؟.

وأهم من ذلك كله أنه يريد أن يفهم نواميس الخالق سبحانه وتعالى التي أخضع لها سبحانه الكون والإنسان والمجتمع، لأن فهم الإنسان لهذه النواميس أمر ضروري بالنسبة له، سواء في مستوى حياته العلمية، الرعوية أو الزراعية أو في مستوى تحقيق تقدمه الحضاري.

وإن ما أعطته رسالات السماء في تفسير حركتي الكون والمجتمع، إنما هو إطار كلي، ترك للعقل البشري أن يقوم فيه بالفهم والتفسير، فهذا هو مجال الاختيار، وشأن (تفسير التاريخ) هنا شأن بقية المجالات، التي طرقها الوحي الكريم، فثمة قوانين كلية حاكمة وضابطة، وثمة مساحة الاختيار الإنساني واسعة وفسيحة.

فحتى في علاقة الإنسان المخلوق بالله الخالق ثمة أوامر تكوينية فطرية، وثمة أوامر تشريعية وعبادية، وهناك -في المقابل- مساحة لحرية الإنسان هي مناط الثواب والعقاب، في تفاعلها -إيجاباً أو سلباً- مع القوانين الفطرية والتشريعية.

وفي ظل هذه الرؤية الإسلامية لعلاقة الإنسان بالكون والأوامر الإلهية الكونية والتشريعية، يتجلى حظ الإنسان المتاح له من الحرية والإرادة. وتتضح (المعادلة) الإنسانية المتوازنة، القائمة على تقنين الحرية من جانب، وفض نظريات أو إيديلوجيات الحتمية الجبرية من الجانب الآخر.

والحق أن المذاهب (الجبرية) أو (الحتمية) قد اهتزت حتى في مجالها الطبيعي المادي، وإننا لنجد مفكراً كالأستاذ (أوبجتون) يصور لنا هذا الاهتزاز بأسلوب حاسم فيقول: (لا بد لي أن أوضح أن النظرة العلمية للمذهب اللاحتمي لا تعني أن هناك أحياناً استثناءات للقانون الحتمي، لكنها تعني أن كل ظاهرة لا حتمية بدرجة كبيرة أو صغيرة).

ويقول (أوبجتون) أيضاً: (طالما أن الحتمية قد أزيحت من وضعها الذي يبدو منيعاً في علم الطبيعة فإن من الطبيعي أن نشك في قولها حين تزعم أنها اتخذت لنفسها وضعاً مؤكداً في مناطق أخرى من الخبرة) (١).

وليس أروع من القرآن الكريم، وهو يرفض تلك الحتمية الجماعية، أو تلك الجبرية الفردية، فيوجه النظر إلى أنه لا حتمية هنا ولا هناك، وإلا انعدام (المسؤولية) وانعدام (بالتالي) معنى الثواب والعقاب.

---

(١) د/ زكي نجيب محمود: الجبر الذاتي: ص ٢٤٥، ٢٤٦، طبع الهيئة المصرية العامة بالقاهرة سنة ١٩٧٣ .

يقول القرآن الكريم:
﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[١].
﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾[٢].

أجل.. ليس الإنسان مجبراً أو آلة تحركها أية عوامل، وإنما هو - قبل أي مؤثر - المسؤول الأول عن صناعة الحضارة، وهو المحرك الأول للحضارة في مرحلة نموها واستمرارها وازدهارها.

إنه (المستخلف) على هذا الكوكب، وإن التاريخ إنما هو شأنه، سواء كان فرداً.. أو فرداً ممتازاً في هيئة بطل، أو جماعة آمنت بمبدأ إيجابي، ومتى تزايد إقبال الأفراد والشعوب على الطاعة لإرادة الله تحسنت الأمور، أي أن مقياساً أساسياً من مقاييس التقدم الحضاري هو المجاهدة في سبيل التقدم[٣]، وفي النهاية فإن كل شعب سيحصل على ما يستحق بالعدل الإلهي!! لكن ذلك لا يعني أن الإنسان هو وحده في هذا الكون، وأنه حر في أن يحطم كل (نظام) ويتمرد على كل أصول عقلية أو قانونية، كسائق السيارة المجنون الذي يعتقد أن إشارات المرور إنما هي قيود وأصفاد، ويرى أن تحقيق حريته يقتضي حرية الانفلات من هذه القواعد المرورية.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٣٤ .

(٢) سورة الأنعام: الآية ٤٧ .

(٣) انظر ويد جيري: التاريخ وكيف يفسرونه: ص٩٤ لبنان.

إن هذه (الحرية الفردية اللامبالية) مرفوضة، لأنها تعني العشوائية التي هي سلب للعقل والقانون، ومن الواضح أن هذا المذهب (الحرّ) إذ يمارس (حرية اللامبالاة) هذه، إنما يقضي على (حرية المجموع) من جانب، ويقضي على المسؤولية الخلقية من جانب آخر.

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[١].

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[٢].

﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾[٣].

كما ينبغي للإنسان -كذلك- ألا ينسى أنه محكوم بسنن ونواميس إلهية تفوق طاقاته وقدراته جميعاً، ودونها لا يمضي حق وعدل ولا يستقيم نظام كوني ولا وجود بشري، ولا تتحقق حكمة الله سبحانه وتعالى من تسيير الكون، والخلائق جميعاً وفق طرائق محدودة تؤول بهم إلى الأهداف التي رسمها علم الله المطلق، ورفعتهم إليها إرادته التي لا راد لها[٤].

الكون: صداقة للإنسان ودلالة على الخالق:

وإذا كانت هذه طبيعة العلاقة بين قدرة الله وإرادة الإنسان في الحدث الحضاري فما حقيقة العلاقة بين الإنسان والطبيعة، التي هي ركن أساسي من أركان العملية الحضارية؟

---

(١) سورة الزمر: الآية: ٦٢-٦٣ .

(٢) سورة الرعد: الآية: ١٥ .

(٣) سورة الروم: الآية: ٢٦ .

(٤) د/ عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي ص ١٨١ لبنان المكتب الإسلامي.

والحقيقة أن مذاهب كثيرة ومفكرين كثيرين لم يوفقوا في رسم حدود العلاقة بين الإنسان والطبيعة، إن الطبيعة التي يطلق عليها بعضهم (المادة) ويطلق عليها آخرون (التراب) ليست ركناً مقابلاً ومضاداً للإنسان.. إنها لا تفرض عليه (الصراع) معها لكي يصنع حضارة، كما يذهب إلى ذلك أصحاب التفسير المادي، والمثالي، وبدرجة كبيرة أصحاب التفسير الحضاري، وبعض المفكرين المسلمين.

فحتى تعبير (أرنولد تورينبي) الشهير: (التحدي) يمثل شحنة مكثفة لا تمثل حقيقة العلاقة بين الإنسان والطبيعة.

إن الطبيعة بالنسبة للإنسان هي مجاله، وهي بيئته وهي مخلوقة من أجله، وإن جمالها وأهميتها وعطاءها الحق لن يتجلى إلا إذا سخرها الإنسان وأعمل فيها عقله ويده، إنها من غيره جماد وفوضى وتدمير أحياناً.

لقد رفض القرآن الكريم التصور العبراني للعلاقة بين الإنسان والطبيعة، وهي علاقة الرهبة والخوف، لأن الطبيعة في التصور القرآني قد خلقت من أجل الإنسان، كذلك فإن اللعنة التي تحل بالأرض في العهد القديم بسبب خطيئة آدم وحواء حين أكلا من الشجرة المحرمة لا تتفق مع وصف القرآن للأرض بأنها مستقر ومتاع إلى حين[١]، بل إن الإنسان في القرآن الكريم هو المحور والغاية في عالم الطبيعة، ومن أجله سخرت الكائنات كلها. يقول الله تعالى:
﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴾[٢].

---

(١) انظر في تفصيل ذلك كاصد الزيدي (الطبيعة في القرآن الكريم) رسالة ماجستير (نقلاً عن الدكتور عفت الشرقاوي) أدب التاريخ عند العرب ص ٢٠٤ .

(٢) سورة إبراهيم: الآية: ٣٢ .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾[(١)].

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾[(٢)].

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾[(٣)].

وكل ما يخيل لبعضهم أنه صراع بين الإنسان والطبيعة، ليس من باب التهذيب مثلما يهذب الإنسان أبناءه لينتجوا ويثمروا -كذلك فإن الإنسان يتولى الطبيعة بالتهذيب، لكي تضع إمكاناتها وطاقاتها تحت تصرفه، ولكي تعطي وتثمر، وتتعاون معه في إنجاز الحدث الحضاري.. إنها الجسم، وهو العقل، إنها الأنثى الودود، التي لا تبخل بالإنجاب - بإذن الله - متى تم التفاعل الحضاري، أو حسب تعبير (تورينبي) متى تمت (الاستجابة) المناسبة.

فالأمر -إذن- ليس (صراعاً) بل ليس (تحدياً) وإنما هو (تدافع) كريم، كذلك التدافع والتدلل والتمنع الذي يتم بين كل أنثى وذكر.. إنه -في الحقيقة- ليس تحدياً ولا صراعاً، وإنما هو (استثارة) لكل الطاقة المذخورة!!

ونحب هنا أن نبين أن كلمة (تدافع) ليست من نوع (الصراع)، ولا سيما بمحتواه الفلسفي الجدلي، فإن (التدافع) ليس إلا قمة الاستثارة ليبقى - في النهاية - ما ينفع الناس: ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[(٤)].

---

(١) سورة إبراهيم الآية: ٣٣ .

(٢) سورة النحل: الآية: ١٤ .

(٣) لقمان: الآية: ٢٠ .

(٤) سورة البقرة: الآية: ٢٥١ .

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾(١).

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾(٢).

وكيف يكون الأمر (صراعاً) مع أن (الأرض) في الإسلام إنما جعلت كلها مسجداً؟!!.

وكيف يكون الأمر صراعاً مع أن (الزمن) هو (الدهر) ولا يجوز أن يسب المسلم الدهر؟!!.

وإذا كانت الحرية المسؤولة -بمعنى من معانيها- تعني انعدام القيود، فإن (الحرية المطلقة) تعني أن تكون حراً من جميع القيود: أي أن تتحرر من الأشياء الخارجية، ومن الطبيعة، ومن الناس من حولك، ومن القانون، ومن العقل، ومن الوراثة، لكنك - من ناحية أخرى لو تحررت من كل شيء لكان معنى ذلك أنك لا شيء فاللاشيء أو العدم هو وحده الحر حرية مطلقة.. فالحرية المطلقة هي العدم المجرد، ومن هنا فإذا كان الإنسان بالموت يتوقف عن أن يكون شيئاً، فإنه -بالموت أيضاً- يكون لأول مرة حراً حرية مطلقة، لأنه سيصبح لا شيء(٣).

---

(١) سورة الرعد: الآية: ١٧.

(٢) سورة الأنبياء: الآية: ١٨.

(٣) نقلاً عن: زكي نجيب محمود: الجبر الذاتي ص ٢٥٢ تصرف.

ولهذا - فعندما أطلق الله للإنسان حريته - أطلقها في حدود الحفاظ على نظام (المرور الكوني) بإشاراته وعلاماته التي تحول دون الصدام والموت المحقق. فلا جبر ثمة ولا حتمية، وإنما نظام يسمح لكل الحريات التي قد تتصارع بالحركة الحرة المأمونة.

﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ من غير أن تتضبط حركته بقوانين وسنن، وأوامر ونواه.. كلا.. إنه لن يترك هملا يرعى كما ترعى السوائم، بل لا بد له من قيود وضوابط يرعى في حدودها ويتحرك في مجالها [١].

ويشير الفيلسوف الأمريكي (توماس بين) إلى ضرورة هذه القوانين الضابطة فيقول: «إن الطبيعة وهي مسيرة بالقوانين التي استنها الله الذي يريد بخلقه خيراً، والإنسان جزء من الخلق - من أجل ذلك لزم أن يكون الإنسان في حال كماله مسيراً بقوانين أخلاقه نحو خيره، فكما أن للطبيعة قوانينها، فكذلك للإنسان قانون [٢] ».

والقرآن الكريم إذا تحدث عن سنن الله في المجتمع الإنساني، فإنه يتحدث عنها كحلقة في سلسلة النظام الكوني القائم على التناسق بين عناصر الكائنات الوجودية تناسقاً يؤدي به عملها الذي تقتضيه طبيعة وجودها [٣]. فلا مندوحة من أن يهيمن الله على الحركة العامة للكون، ولا مندوحة للإنسان من أن ينسق خطواته على أساس الانسجام مع هذه الهيمنة الإلهية.

---

(١) عبد الكريم الخطيب: القضاء والقدر ص ٤٥، طبع دار المعرفة ببيروت.

(٢) زكي نجيب محمود: حياة الفكر في العالم الجديد ص ٤٢، وانظر المرجع السابق ص١١٩ .

(٣) محمد الصادق عرجون: سنن الله في المجتمع ص ٢٨ .

إن الله ليس (ساكناً) أو (متفرجاً) على مباراة الكون من خلال شاشة مـرئيـة إن إلهـاً من هذا النوع الإغـريقي، ليس إلهـاً في الحـقـيـقـة وفي الإسـلام، فإن الله (فعال) و(قدير) و(مهيمن) و(خبير) و(محيط). ولا ينبغي للإنسان -في التفسير الإسلامي- أن يغفل - ولو لحظة - هذه الهيمنة الإلهية الشاملة على كل ما في الكون ومن في الكون.

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ ﴾[1].

وكيف يكون الأمر صراعاً مع أن الكون كله يسبح بحمد الله ويتجه إلى عبادته؟!!.

وكل مـا في الكون -ابتـداء- إنما خلقـه الله ومـهـده، لكي يكون في خدمة الإنسان، خليفة الله -فما ضرورة الصراع إذن؟.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2].

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[3].

---

(١) سورة النحل: الآية: ٤٩ .

(٢) سورة البقرة: الآية: ٢٩ .

(٣) سورة فصلت: الآية: ٩-١٢ .

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (١).

ومع أن الدكتور عماد الدين خليل الذي تصدى بجرأة وشجاعة لمحاولة (التفسير الإسلامي للتاريخ) -قد لمس- بأسلوبه الأخاذ- بعض ملامح هذه العلاقة الكريمة التي تربط الإنسان بالطبيعة، إلا أنه -أيضاً- ذهب إلى أن هناك (صراعاً) بين الإنسان والطبيعة.

إنه يقول -أولاً- في تصور العلاقة بين الإنسان والطبيعة: إن أخلاقية الوجود البشري على الأرض تقتضي الحوار الفعال بين الإنسان والطبيعة.. هو يسأل وهي تتمنع عن الإجابة، وهو يسعى إليها متسائلاً قلقاً، وهي ترفض أن تفتح له أحضانها وتلقي إليه بكنوزها..

معنى هذا أن على الإنسان أن يرفض الكسل والقعود، وأن يتخلى عن السعي الهادئ المطمئن إلى رزقه وتأمين حياته.. وفي القرآن الكريم مئات الآيات والإشارات تنفخ في الإنسان هذا المعنى الحضاري العظيم، وتعلمه أن حواره مع الطبيعة لن يثمر إلا بالسعي، والكدح والحركة.

وكما يطلب الإسلام من الإنسان الحركة العقائدية على الكون كله فكذلك يطلب أن تكون حركته (العقلية) في نطاق الكون كله، فالأرض جزء من الكون، الناموس الذي يحكم الأرض هو نفسه الذي يحكم

(١) سورة الزخرف: الآية: ١٠-١٣ .

الكون، والله سبحانه خالق القوانين والأوضاع والإنسان ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ ومن ثم فإن اللقاء بين الحركتين: حركة العقل، وحركة الوجدان، حركة الحس، وحركة الروح، حركة الذهن، وحركة القلب، هذا اللقاء القائم على التوافق والتوحيد والانسجام سيكون محتماً في المدى القريب والبعيد، لأن كلتا الحركتين ستطلع الإنسان على الملكوت وتقوده إلى الله» [(١)].

وفي موضع آخر يقول: «إن هناك بداهة من أشد بداهات الإيمان أهمية، تلك هي أن الله سبحانه مادام قد عبر عن إبداعه وقدرته الكلية على مستوى الروح والمادة، الإنسان والطبيعة، فليس ثمة معنى أبداً لأي موقف بشري من المادة أو الطبيعة يتميز بالهروب أو الاحتقار أو السلبية أو الاستعلاء. إن هذا الموقف مهما كانت درجته غير مبرر في بداهات الإيمان ولا في مقتضيات (الاستخلاف)، ليس هذا فحسب، بل إنه يقف نقيضاً لهذه البداهات والمقتضيات، ومن ثم فهو مرفوض من القرآن الكريم ابتداء» [(٢)].

ومع هذا الذي يبدو من اقتراب الكاتب من طبيعة العلاقة بين الإنسان والطبيعة لكن الكاتب لا يلبث أن يعود، فيركز على قضية (الصراع) مع الطبيعة، فيقول: «إن الصراع نفسه يتخذ أشكالاً عديدة لا تقتصر على تقابل الضدين وتغلب أحدهما على الآخر في عالم الفكر أو المادة.. إنه يبدو أحياناً إرادة ذاتية تسعى إلى التوحيد والائتمان الذاتي في وجدان الإنسان، ومع المحيط الخارجي، ويبدو أحياناً أخرى رغبة فعّالة في تحقيق تفاهم متبادل وتعارف وثيق وسليم عام بين الإنسان والإنسان أو بينه وبين الوجود» [(٣)].

---

(١) د/ عماد الدين خليل- التفسير الإسلامي للتاريخ ص ٢٠٠-٢٠١ .

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

فلماذا تكون العلاقة (صراعاً) إذن؟.

ولماذا لا نسميها علاقة (استثارة) لبذل أقصى المذخورة؟!.

أجل.. ليس في حركة الحضارة (صراع) من نوع ما، ولا بين المرأة والرجل، ولا بين السالب والموجب، ولا بين أي ذكر وأي أنثى في الحيوان ولا في النبات ولا في الجماد، وإنما هناك تلك (الاستثارة) التي يبذلها كل من الطرفين المتقابلين، ليستخرج كل منهما أقصى الطاقة المذخورة، حتى يتحقق التكامل المنشود في أفضل صوره الممكنة.

إنه حوار فطري ثنائي تقتضيه طبيعة الحياة التي فطرها الله عليها، إنه حب خفي، ووئام، وتكامل، تحققه الحياة بأسلوبها المتنوع..

وإلا فمن دون التقابل المتناغم كيف تعرف خصائص الأشياء؟ بل كيف تعرف حقائق الأشياء؟ فمن دون الأسود كيف نعرف الأبيض؟ ومن دون النار كيف نعرف الليل؟ ومن دون الكره كيف نعرف الحب؟..

وكيف نعرف (فوق) إذا لم نعرف (تحت)؟ أو (الشمال) إذا لم نعرف (الجنوب)؟.

إن القضية تتصل بناموس كوني كبير صاغه الله، وهو ليس (ديالكتيكا) جدلياً، يخضع لصراع تناقضي.

بل هو اختلاف وتنوع لا تتحقق (سيمفونية) الحياة التي تقتضي طبيعتها اختلاف الإيقاعات إلا به.

فلكي تنشأ الحياة وتنمو وتزدهر لابد من هذه (الزوجية) الازدواجية المتقابلة المتكاملة.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾[١].

إنها سفينة واحدة، لا تحتمل حدة الصراع، وإنما الذي تحتمله هي هذه (الزوجية) المتحاورة المتنوعة المتكاملة.

القرآن المسطور يقود إلى فقه الكون المنظور:

ثمة آيات قرآنية كثيرة تتصل بالكون، وتتحدث عن عوالمه المختلفة، المشاهد وغير المشاهد، والمعلوم وغير المعلوم:

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لا تُبْصِرُونَ ﴾[٢].

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾[٣].. وكثير من الآيات تتكلم عن صور من الإبداع الإلهي في عالم النبات، وعالم الحيوان، وعالم الطبيعة والإنسان ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾[٤] ... وكثير من الآيات تتحدث عن مفردات دقيقة في عوامل الكون، وهكذا بصفة إجمالية نجد القرآن الكريم حافلاً بالآيات العظيمة التي تشد انتباهنا وتلفت نظرنا إلى ذلك الكون البديع الذي نعيش فيه؛ لنرى كيف يسير بدقة وعظمة تنبئان عن أن لهذا الكون خالقاً، خلق وقدر ودبر، ومن هذه الآيات الآية التي تقول: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[٥]!! والسماء هي

(١) سورة هود: الآية: ٤٠ .

(٢) سورة الحاقة: الآية: ٣٨-٣٩ .

(٣) سورة الواقعة: الآية: ٧٥-٧٦ .

(٤) سورة فصلت: الآية: ٥٣ .

(٥) سورة الإسراء: الآية: ٤٤ .

أسطع لوحة تدل على وجوب وجود الخالق وعظمته سبحانه بما تمتلئ به من الأجرام السماوية الضخمة التي يبلغ حجم بعضها أكبر من أرضنا ألف مرة.. والتي يسير بعضها بسرعة أكبر من انطلاق القذيفة.. تسير كلها بلا مزاحمة ولا تصادم. وتسير بلا ضوضاء ولا أعطال.. تحوي آلافا من القناديل المضاءة التي تساعد الناس في سيرهم. وهي تضاء بلا زيت ولا كهرباء وتجمل السماء وتجعلها زينة للناظرين [١].

■ ومازالت السماء مع التقدم العلمي الهائل -وستبقى- مجالاً خصباً للبحث والاستكشاف؛ حيث يمكن القول إن ما عُرف عنها لا يساوي إلا نسبة مليونية مما يمكن أن يُعرف.. ومع ذلك فكثير من تجليات الإبداع واضحة لكل من ينظر بعقل وبصيرة معاً إلى السماء وما فيها.

فإن من ينظر في السماء يلمح بجلاء -لو أعمل عقله وخلصت نيته- أن السماء وما فيها مسخر ومدبر وموظف، فمن يا ترى فعل ذلك بهذه القدرة الفائقة المعجزة..؟ إنه الله الذي لا إله إلا هو... إنها تمضي منذ خلقت وفق ناموس لا يختل قط..!!.

■ وعندما ننظر في الفضاء ونجده معرضا للعجائب والخوارق كذلك، ففيه السحاب المعلق بين السماء والأرض، يسقي ساكنيها بالماء، الذي هو أساس الحياة عليها، ويلطف من حرارتها.

■ فمن الذي سخره وجمعه وأمره أن يُنزل الماء؟! إنه الله [٢] سبحانه وتعالى.

(١) النورس الآية الكبرى ص ٣٠-٤٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٤ .

■ ثم هذا هو الهواء الذي يملأ الفضاء.. فكل ذرة من ذرات ذلك الهواء الجامد الذي لا يملك شعوراً، تسمع وتعي ما يلقى إليها من الأوامر الإلهية.. فيستنشقها جميع الأحياء.. وتنقل الأصوات وتنقل الحرارة والضوء والكهرباء.. وتصير وسطا صالحا لتلقيح النباتات.. وغير ذلك من الوظائف، فكيف انتظمت وأدت ذرات الهواء دورها على هذا النحو؟!!.

■ ثم لننظر إلى المطر الذي يغدقه الله تعالى علينا من خزائن رحمته على صورة تلك القطرات المتهاطلة، ولذلك أطلق على المطر اسم الغيث والرحمة [(١)].. كيف استقام أمر المطر على هذا النحو؟ وكيف أن أمماً تعيش على المطر في زراعاتها وحيواناتها؟.

■ فهل كان ذلك كله احتمالاً أو مصادفة؟ وكيف بقيت هذه المصادفة ثابتة آلاف السنين؟!.

■ أو أنها قدرة الله القوي اللطيف الكريم المحيط بكل شيء علماً، والذي عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، وينزل الغيث، وينشر رحمته، ويمسك السموات والأرض أن تزولا.. وصدق الله العظيم القائل في كتابه المبين: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [(٢)].

وعندما ننظر أيضاً فوق الأرض، فنبصر عالم الحيوانات، وفوق الأرض وبين السماء والأرض فنبصر أسراب الطيور التي لا يمسكهن إلا الله وحده، والتي تمضي عابرة المحيطات بذاكرة كمبيوترية لا تخطئ

(١) المرجع السابق ص ٣٥-٣٦ .

(٢) سورة الواقعة الآية: ٦٨-٧٠ .

طرقها ولا مساكنها.. عندما يتعمق تفكير الإنسان، بعقله الواعي - في عالم الطيور والحيوانات على هذا النحو - يجد تلك الحيوانات والطيور تتكلم بمئات الألوف من الأصوات المتباينة، والألسنة المختلفة، وسوف يجد ذلك الإنسان ثلاث حقائق عظيمة محيطة تشهد على وحدانية الله جل جلاله وهي: حقيقة الإيجاد والصنع والإبداع (أي حقيقة الإحياء ومنح الروح)، وحقيقة التميز مع الجمال، التي تتضح من خلال تلك المخلوقات غير المحدودة، والتي يختلف بعضها عن بعض بعلامات فارقة وبأشكال مزينة وبمقادير موزونة وبصور منسقة، ثم حقيقة خروج كل هذه الأنواع غير المحدودة من بيوض وبويضات متماثلة معدودة ومن قطرات بسيطة متشابهة أو مختلفة بفارق طفيف [١].

■ فهل تم كل ذلك بالمصادفة أو الاحتمال؟ وأي مصادفة أو احتمال يصل إلى هذه العبقرية العجيبة: عبقرية عجيبة في الإيجاد.

■ وعبقرية في حفظ التميز الدقيق بين الأنواع حتى في الصنف الواحد.

■ وعبقرية في إخراج كل هذا الإعجاز من بذور ضعيفة، وبويضات ضئيلة.. ومع ذلك فمع ضعفها وضآلتها -تحمل فهرستا كاملاً بخصائص النوع ووظائفه لا تحيد عنه!!.

■ وإذا تركنا السماء والفضاء والماء والهواء والمطر.. ثم أدركنا النظر إلى الركن الأسفل الذي نبصره، أي إلى الأرض التي نسير فوقها بأقدامنا وننام بأجسادنا، ويخيل إلينا أنها منبسطة ساكنة خامدة جامدة، بينما هي تمر مر السحاب وتدور عدة دورات كما تدور عقارب الساعات.

■ ومع ذلك نجد فوقها جبالاً كالأوتاد.. هائلة ضخمة رهيبة..

(١) النورسي: الآية الكبرى ص ٥٢-٥٥ .

والعجيب أننا عندما نتأمل بفكرنا وعقلنا في عالم الجبال والصحارى، نجد أن وظائف الجبال الكلية وفوائدها العامة من العظمة والحكمة بما يحير العقول؛ فمثلاً نجد بروز الجبال واندفاعها من باطن الأرض بأمر رباني يهدئ من هيجان الأرض، ويخفف من حدتها الناجمة عن تقلباتها الباطنية، فتتخلص بذلك من الزلازل المهلكة والتصدعات المدمرة، فالجبال أوتاد للأرض تحفظ توازنها.. قال تعالى: ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾[١]. وقال:﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾[٢]، يضاف إلى ما في جوف هذه الجبال من أنواع الينابيع والمياه والمعادن والمواد والأدوية التي ادخرت بحكمة وكرم وتدبير[٣].

ومع كل ذلك، فهذه الكائنات.. تتكامل في أداء أدوارها، وتمضي لوظائفها بحب وشوق ووفاق القانون الجاذبية بين السالب والموجب، والذكورة والأنوثة في كل شيء، وحتى علاقة الإنسان نفسه بالكون، مع أنها علاقة تسخير بين (فاعل) هو الإنسان و(موضوع) هو الكون، إلا أن التسخير هنا -في الرؤية الإسلامية- ليس تسخير إذلال وصواع، بل هو تسخير ودود كريم استئناسي، فالرسول يحب جبل أحد، كما أن جذع الشجرة كان يحن لرسول الله عليه السلام..!!.

وهنا نؤكد ونزكي ما يؤكده لنا المفكر الإسلامي والمصلح الكبير بديع الزمان سعيد النورسي التركي (ت١٩٦٠م) من أن للجمادات حسا وعاطفة، مثلها مثل الحيوانات والطيور غير العاقلة.. ولها كلها جمادات

---

(١) سورة النبأ: الآية: ٧ .

(٢) سورة الحجر الآية: ١٩ .

(٣) النورسي: الآية الكبرى نشر سوزلر القاهرة.

أو حيوانات- أشواق ولذائذ، وهو يؤيد مقولته بأن من يبصر بعض الجمادات يجدها تطلب شرفاً ومقاماً وكمالاً وجمالاً وانتظاماً، بل هي تبحث عن كل ذلك، وتفتش عنه لأجل إظهار الأسماء الإلهية المتجلية فيها، لا لذاتها، فهي تتور وتترقى وتعلو أثناء امتثالها تلك الوظيفة.

لنتذكر أيضاً عالم الحيوانات والطيور غير العاقلة -هنا- أن الديك مثلاً- مع أنه غير عاقل يؤثر الدجاجات على نفسه، فيترك ما يلتقطه من حبوب رزقه الهين، دون أن يأكل منها. ويشاهد أنه يقوم بهذه المهمة، وهو في غاية الشوق، وذروة اللذة، فهناك إذن لذة في تلك الخدمة أعظم من لذة الأكل نفسه.. وكذا الحال مع الدجاجة -الراعية لأفراخها- فهي تؤثرها على نفسها، إذ تدع نفسها جائعة في سبيل إشباع الصغار، بل تضحي بنفسها في سبيل الأفراخ، فتهاجم الكلب المغير عليها لأجل الحفاظ على الصغار[١].

وعلى هذا يقاس جميع ما في الكون من سعي وحركة، ابتداء من دوران الشموس في أفلاكها، وانتهاء بدوران الذرات في دائرة جاذبيتها، حتى إن كل ذرة، وكل ذي حياة تبدو كالجندي في الجيش له علاقات ينجذب إليها، وله وظائف وارتباطات مع كل دائرة من الدوائر في جيش الحياة كله!!

وأياً كان الأمر فإن مفردات الكون، أو ما نسميه عالم الأشياء ينقسم إلى ثلاثة أقسام[٢].

---

(١) النورسي: حقائق الإيمان ١٢١، ١٢٢ .

(٢) النورسي: الآية الكبرى.

قسم منها: كالماء يُرى ويُحس، ولكن لا يمسك بالأصابع.. ففي هذا القسم المادي ينبغي التجرد عن الخيالات والانغماس فيه بكليتك.. بالطرق العلمية البحتة.. وسوف تكتشف أسرارًا عجيبة في الماء وأشباهه تؤكد لك وجود الخالق العظيم.

والقسم الثاني: كالهواء، يُحس ولكن لا يُرى، ولا يُتخذ ولا يُمسك.. فهو نصف مادي ونصف معنوي، وهو بحاجة إلى العلم والبصيرة. وبهما تدرك عظمة اللطيف الرحيم الذي يقيم حياة الناس والكون على كائن لطيف على هذا النحو.

والقسم الثالث: كالنور، يُرى ولكن لا يُحس، ولا يؤخذ ولا يستمسك، فيحتاج لعمل الكيان الإنساني كله.. من بصيرة القلب إلى الروح.. لأن النور لا يؤخذ باليد، ولا يُصاد بالأصابع، وهو يعالج بالفكر والبصيرة [1].. وبالفكر (الموضوعي النقي) والبصيرة (النقية القوية) نستطيع أن ندرك بعض آفاق عظمة الله في الكون، ولكننا سندرك أول ما ندرك أن هذا الكون لا يقوم بغير خالقه الحكيم المدبر الخبير المهيمن الرحيم.

وسوف يدلنا كل شيء في الوجود على وجوب وجود الله القدير، وعلى عظمته المطلقة من جهتين:

الجهة الأولى: قيام كل كائن من الذرات حتى المجرات ومن النملة حتى الفيل بوظائف تفوق طاقته المحدودة بآلاف المرات، مع أنه عاجز عن ذلك، فيشهد كل كائن بلسان عجزه على وجود الله القدير المطلق.

(١) المرجع السابق.

الجهة الثانية: توافق حركة كل كائن مع الدساتير التي تكون نظام العالم، وانسجام عمله مع القوانين التي تديم توازن الموجودات، فيشهد -بهذا الانسجام والتوافق- على وجود الله العليم القدير.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(١)

ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا.. فسبحان الله رب العرش عما يصفون!!.

(١) سورة الأنبياء: الآية: ٢٢ .

إنسانية الإسلام

في تكريم الجنس الآدمي

«ولقد كرمنا بني آدم»

«١»

الإسلام: دين علم ورسالة تحضّر

المزج بين العلم والدين والعقل والوحي من حقائق هذا الدين، كذلك فإن البلاغ الديني والعمل لكل أفراد الجنس البشري رسالة هذا الدين بعيداً عن الأنانية والعنصرية.

ولم يكن تأثير المسلمين الحضاري في الأوروبيين أو غيرهم، تعبيراً عفوياً عن تقدم عقلي أو علمي وصلوا إليه، وإنما كان هذا التأثير شرعياً، ونتيجة ضرورية، لمنطلقين أساسيين في الإسلام:

اولهما: أن الإسلام بطبيعته ليس مجرد دين بالمعنى التقليدي أو اللاهوتي للدين، بل هو دين ودنيا، وروح ومادة، ونظام، وعقيدة ومنهاج شامل يقدّم الكليات والإشارات الضرورية لمسيرة الحضارة الإنسانية، حتى تحتفظ بأساليب إنسانية، وتصل إلى غايات كريمة ديناً ودنياً.

ثانيهما: أن الإسلام ليس دين جنس أو قوم، بل هو دين عالمي يجب على المؤمنين به أن ينشروه بمفهومه الشامل -بين الناس جميعاً- بالوسائل الحكيمة القائمة على الحوار والبلاغ بالتي هي أحسن..

ويعد العلم النافع للدنيا والدين -بكل أنواعه- من وسائل نشر هذا الدين، لأنه يقدم الدنيا مصحوبة بغايات كريمة، حاملاً في بنائه الفكري وجهة النظر الإسلامية للكون والحياة والإنسان!!.

ولهذه الطبيعة الإسلامية لم يكن تأثير الإسلام -كما يفهم بعضهم- في الحضارة الإنسانية تأثيراً كمّيّاً يتمثل في غرس بعض القيم أو في تنقية بعض المعارف أو تحقيق تقدم كيْفي أو كميّ في بعض العلوم والوسائل، إنما كان تأثير الإسلام أبعد من ذلك بكثير.. لقد كان ظهور الإسلام منعطفاً جديداً في تاريخ الأديان والحضارات، فإن كتاباً سماوياً ينزل في بطحاء مكة الجرداء ليقول لكل إنسان:﴿ اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ لا يمكن إلا أن يكون بداية عصر جديد، هو عصر القراءة والعقل والتضخم المعرفيّ..!!.

لقد أصبح العقل والمعرفة يتصدّران الحياة باسم الدين، بينما كانت المذاهب والحضارات السابقة تحكمها الموروثات البالية والتقاليد الراسخة الجامدة.. جاء الإسلام أشبه ما يكون بعاصفة كونية تحارب كل ذلك، وفي كل الأماكن التي وصلت إليها إشعاعات الإسلام تأثرت به طباع الناس وعقولهم على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم..

يقول برهولت المؤرخ العالمي المشهور: «ما من ناحية من نواحي تقدم أوروبا إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضل كبير وآثارها سمة لها تأثير كبير»..

ويقول في موضع آخر: «لم تكن العلوم الطبيعية التي يرجع فيها الفضل إلى العرب، هي التي أعادت أوروبا إلى الحياة، ولكن الحضارة الإسلامية قد أثرت في حياة أوروبا تأثيرات كبيرة ومتنوعة».

وها هي أمريكا وأوروبا تخترع اتفاقية لحقوق الملكية الفكرية تمنعنا فيها من العلم والمعرفة، لكي نبقى فقراء ومستوردين معتمدين عليهما..

وبالتالي ننتهي إلى أن نكون خدماً أو عبيداً للحضارة الغربية، ويفرض علينا الجهل والتخلف..

فأين حضارتنا وديننا من عقائد هؤلاء وحضارتهم؟!!.

«٢»

الإسلام رسالة عالمية تخاطب كل الناس

■ جاء الإسلام رسالة إنسانية عالمية لكل الناس، وليس للعرب وحدهم (مع أنهم طليعة الدعوة) بل هم فيه سواء مع كل الناس تحدد مكانتهم (التقوى) وما يبذلونه في سبيل هذ الدين الذي شرَّفهم الله به.

■ ونستطيع القول: إن الدين الصحيح منذ آدم إلى محمد (عليهما الصلاة والسلام)...

كان دعوة مفتوحة لكل الناس؛ فمع أن يوسف عليه السلام من بني إسرائيل، وهو الابن الأعز لدى يعقوب عليه السلام، إلا أنه استغل وجوده في السجن المصري ودعا المصريين إلى عبادة الله الواحد القهار:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾. (يوسف: ٣٨).

وكان في بيت فرعون مؤمنون يكتمون إيمانهم، على رأسهم آسية امرأة فرعون نفسها رضي الله عنها، ومنهم ذلك الرجل الذي كان يكتم إيمانه، وأنقذ الله موسى على يديه من القتل، وعندما جاء عيسى عليه السلام رسولاً لمدة محدودة جداً لا تزيد عن ثلاث سنوات وثلاثة شهور وثلاثة أيام لعلاج خراف بني إسرائيل الضالة، استقبل على مائدة دعوته غير الإسرائيلين.. مع أنه عليه السلام قصد بدعوته -بالدرجة الأولى- قومه بني إسرائيل.

■ وعندما جاء الإسلام وهو خاتم كل الأديان -وآخر حلقاتها الموصولة: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ كان ضرورياً أن يكون عالمياً؛ لأنه كلمة الله الخاتمة وحجته البالغة إلى يوم القيامة. ولأن طبيعة مبادئه تتجه إلى العدل المطلق والرحمة المطلقة وإنقاذ كل الناس.

■ إن القرآن الكريم وهو المصدر الأول للإسلام -رسالة عالمية، والرسول محمد صلى الله عليه وسلم رسول للعالمين رحمة وبشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين والمنافقين.

■ وبعد صلح الحديبية وبدءاً من السنة السابعة للهجرة بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم في المجال التطبيقي يحقق عالمية الدعوة، ويخرجها من نطاق الجزيرة العربية حتى يحقق بُعدها الإنساني العالمي غير المحدود بالمكان أو القوم أو الزمان فأرسل عليه السلام رسله يحملون كتبه إلى الملوك والرؤساء والأمراء في عصره، لا يفرق في دعوته بين قيصر ملك الروم وكسرى إمبراطور الفرس، وأمراء الحدود كالغساسنة والمناذرة، ثم جاء أصحابه من بعده رضوان الله عليهم وأكملوا المسيرة.

وهكذا كان الإسلام فكراً وتطبيقاً عالمياً منذ نشأته.



■ وليس بدعاً في ضوء العالمية الإسلامية أن تنتهج أية دعوة إصلاحية نهجاً عالمياً، لكن شريطة أن تكون رسالتها تهم العالم فعلاً، وتخدم العالم كله، وتقدم خيراً للناس، أو تحقق رُقياً لجميعهم،

قد تختلف فيه النسبة بين بلد يعلم ويعمل، وبين بلد آخر أقل علماً وأقل عملاً، لكن المهم أن تكون مفيدة لكل الناس، محققة لكل الناس الكرامة والحرية والعدل والمساواة -وبهذا تفردت حضارة الإسلام كحضارة تقوم على الحب الكامل.. والرحمة للعالمين... والدعوة إلى الحق.. بالحب والرحمة:

وصدق الله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

«٣»

المسلمون والمسؤولية الإنسانية العالمية

■ من أكبر آيات التسامح الإسلامي والشعور بالمسؤولية الإنسانية العالمية أن علماء المسلمين ودعاتهم عندما يعرضون لقضايا الخلل الإنساني لا يصدرون عن شعور عنصري يحصر عرضهم في المحيط الإسلامي أو القومي، بل يعملون على حل المشكلات الحضارية المعاصرة كلها..

■ وانطلاقاً من التصور الإسلامي، أدرك المسلمون أن هناك خللاً وقع في المسيرة الإنسانية نتيجة التحيز للعقل والمادة تارة، والتحيز للروح والغيب تارة أخرى.

■ وهذا التحيز يصيب الحضارة الإنسانية والبشرية بالشلل النصفي لأن الروح، أو الغيب المطلق لا ينفصل عن العقل والمادة والنسبية.

■ لقد كان الاسلام -كما يصفه أحدهم- حافزاً على تشكيل كيان متميز لم تستطع تقلبات الزمن والاحتكاك بالحضارات المختلفة أن تفتّ في عضده على مرّ العصور.. فإن كل شيء في الاسلام يُشَكِّل وحدة، ويعبر في الوقت نفسه عن وحدة، ففروض العبادة تعبر بطريقة ظاهرة، بل بطريقة مادية عن التماسك والالتحام، فالمسلمون يسجدون في صلواتهم خمس مرات يومياً في ساعات متماثلة تقريباً، وفي اتجاه واحد نحو مكة.

■ ويقول الكاتب والصحافي السويسري الكبير الذي هداه الله إلى الإسلام (روجيه دي باسكيه) في كتابه (إظهار الإسلام) [١].

لقد جاء الإسلام إلى الناس لمساعدة الإنسانية على عبور هذه المرحلة الأخيرة من التاريخ العالمي دون أن يتعرضوا للضياع، وباعتباره الوحي الأخير في سلسلة النبوات، فإنه يقدم وسائل لمقاومة الفوضى التي تسود العالم حالياً، وإقرار النظام والنقاء في داخل الإنسان، وإيجاد التآلف والانسجام في العلاقات الإنسانية، وتحقيق الهدف الأسمى الذي من أجله دعانا الخالق إلى هذه الحياة.

إن الإسلام يخاطب الإنسان الذي يعرفه معرفة عميقة ودقيقة ويعرف وضعه بين المخلوقات وموقفه أمام الله.

بينما الفكر الحديث -على العكس من ذلك- ليس لديه معلومات دقيقة متفق عليها تتعلق بعلم الإنسان، ولم يحدث في غير الحضارة الأوروبية أن حدث تجاهل بطريقة منظمة وشاملة للتساؤل عن الأسباب التي من أجلها نولد ونعيش ونموت.

إن الحضارة الأوروبية التي أريد لها أن تكون إنسانية (أيّ عالمية ولو بالقهر) إنما تقود البشرية إلى نظام يحتقر الإنسان، ويخدعه، ثم يدمره في نهاية المطاف!! وذلك بالطبع على العكس من الحضارة الإسلامية..

حضارة بناء الإنسان.. كل إنسان.

(١) نشر مكتبة الشروق بالقاهرة.

«٤»

المصادر الإسلامية وحماية الإنسان وحرية الفكر

■ من المعروف أن القرآن والسنة هما المصدران الأساسيان للإسلام والشريعة الإسلامية والأحكام الفقهية المنبثقة عنهما.

والإسلام يكرم كل الناس بصفتهم الإنسانية، وبصرف النظر عن أصلهم وألوانهم وأديانهم.. يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾[١]... ويقول الله في القرآن الكريم أيضاً: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[٢]. ويقرر الإسلام في شريعته العَدْلَ لكل الناس، بصرف النظر عن أجناسهم وأديانهم ومدى قربهم للإنسان أو بعدهم عنه.. يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[٣].

ويقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾[٤].

---

(١) سورة الإسراء: الآية: ٧٠ .

(٢) سورة التين: الآية: ٤ .

(٣) سورة المائدة: الآية: ٨ .

(٤) سورة النساء: الآية: ٨ .

وإذا كان الإسلام قد قرر كرامة الإنسان وأفضليته بصفته الإنسانية المطلقة المجرَّدة، كما أنه قرر العدل بين كل الناس بصفتهم الإنسانية، بعيداً عن النظر إلى أديانهم وأجناسهم فإنه قد قرر أيضاً حرية الإنسان الدينية بصفة عامة، وحرية أصحاب الأديان السابقة المقرونة باحترام أديانهم وتقديرها بصفة خاصة؛ حيثُ إن جوهر الأديان الصحيحة النازلة من السماء واحدٌ لا يمكن أن يتناقض - يقول الله تعالى في القرآن للرسول عليه السلام مؤكداً هذه الحقيقة ومعترفاً بالأديان السماوية الصحيحة السابقة، ومطالباً كل الأديان: (الإسلام والمسيحية واليهودية) بالاحتكام إلى الحق والعدل.. يقول الله في القرآن للرسول والمسلمين: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾(١).

ويقول: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾(٢).

ويقول: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (٣). فالإسلام مكمل للأديان السابقة وخاتم لها، ومُطَهّرها مما أصابها من أهواء النّاس!!.

---

(١) سورة فصلت: الآية: ٤٣ .

(٢) سورة المائدة:الآية: ٤٨ .

(٣) سورة الشورى: الآية: ١٣ .

وبالإضافة إلى هذه النظرة الكريمة السمحة إلى الأديان السابقة يؤكد الإسلام بصراحة حرية العقيدة لكل الناس، فيقول الله في القرآن:

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾(١).

ويقول القرآن أيضاً: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾(٢).

ويقول: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾(٣).

ويقول: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾(٤).

■ ولقدأخذ الإسلام بمبدأ الحرية الدينية قبل أن تعرفه دول الأرض جميعاً، وتقوم هذه الحرية الدينية في الإسلام على ثلاثة مبادئ:

١- الحرية في اختيار الدين.

٢- الحرية في المناقشات الدينية.

٣- الإيمان الصحيح ويكون مبنياً على إقناع واقتناع.

■ وبالنسبة للمبدأ الأول: وهو الحرية في (اختيار الدين) الذي يعتنقه الإنسان، فلا يرغم الإسلام ذمياً على ترك دينه واعتناق الدين الإسلامي!

---

(١) سورة البقرة: الآية: ٢٥٦ .

(٢) سورة الكهف: الآية: ٢٩ .

(٣) سورة يونس: الآية: ٩٩ .

(٤) سورة الأنعام: الآية: ١٠٧ .

■ فقد سار المسلمون على هذا المبدأ في حروبهم، فكانوا يتركون أهل البلاد المفتوحة وما يدينون به بشرط الولاء للحكومة الجديدة.

وفي ذلك يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كتابه إلى أهل بيت المقدس بعد فتحه: «هذا ما أعطى أمير المؤمنين إلى أهل إيلياء من الأمان.. أعطاهم أماناً لأنفسهم ولكنائسهم ولصلبانهم.. لا يكرهون على دينهم، ولا يضام أحد منهم».

ومن آثار الحرية الدينية ما رسمه الإسلام من حسن معاملة الذميين، إذ يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(١).

■ وبالنسبة للمبدأ الثاني، وهو حرية المناقشات الدينية، فقد أُتيحت هذه المناقشات للمسلمين ولغير المسلمين، حتى إن الخلفاء أنفسهم كانوا يشتركون في تلك المناقشات، ويقول الله في القرآن الكريم: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(٢). ويقول لأهل الديانات غير الإسلامية: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٣).

---

(١) سورة الممتحنة: ٨-٩ .

(٢) سورة العنكبوت: الآية: ٤٦ .

(٣) سورة البقرة: الآية: ١١١ .

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(١).

■ وبالنسبة للمبدأ الثالث: وهو الإقناع والاقتناع قبل اعتناق الدين الإسلامي، بحيث لا يرغم ذميّ على ترك دينه، لأنه لا جدوى من الإيمان بغير اقتناع، فالمسلم إذا كان ضعيف الإيمان مخلخل العقيدة لا يمكن الاعتماد عليه أو الاعتداد به.. فكيف بإرغام غير المسلم؟!!.. إنه لا يجوز بمنطق الإسلام!!.

ولذلك يحثُّ الإسلام على التفكير العقلي الجادّ في مخلوقات الله والإيمان إيماناً صحيحاً سليماً. فقد رأى بعض الفقهاء أن إيمان المقلّد غير صحيح، ويقول الإمام محمد عبده في ذلك: «إن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين، وإن المرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به».

وفي العصور الإسلامية القويّة ألف كثير من اليهود والنصارى كتباً في مهاجمة الإسلام والمسلمين، مثل ابن النغريلة اليهودي في الأندلس، وتحدوا مشاعر الأكثرية الإسلامية في تلك العصور، وكانت السلطة الإسلامية تحميهم من غيرة المسلمين، أو من إيذائهم، وقد قامت مناقشات دينية كثيرة بين طوائف من أهل الذمة والمسلمين، ولم يرغم المسلمون يهودياً أو نصرانياً على اعتناق الإسلام حتى ولو انتهت هذه المناقشات بهزيمة غير المسلم!!.

(١) سورة آل عمران: الآية: ٦٤ .

■ ومن الأكاذيب ربط بعضهم بين الفتوحات الإسلامية وانتشار الإسلام، فوقائع التاريخ تكذّب ذلك بدليل أن الإسلام لم ينتشر في هذه البلاد إلا بعد عدة قرون، وبدليل قاطع آخر هو أنه انتشر في بلاد لم يفتحها بسيوفهم المسلمون، بل انتشر نتيجة التجارة والمخالطة والمعاشرة، كما أنه ينتشر اليوم في بعض البلاد المتقدمة، مع أن الدول الإسلامية محسوبة من الدول الضعيفة المتخلفة!!.

■ وربما يرى بعضهم أن موقف الإسلام من الردّة يخالف حرية العقيدة، فالحقيقة أن هذا الموقف ينبع من تقدير الإسلام للدين من أنه عقيدة ونظام ودين ودولة، فالمرتد المتبجح بردّته والمعلن لها يتحدى البناء الاجتماعي للدولة الإسلامية، ويعمل على تقويض دعائمها، ولو أنه عاقلٌ مرتداً دون هذا الإعلان والتبجح لما ناله أذى، فالتجّسس على شؤون الناس ممنوع في الإسلام!!.

«٥»

حقوق الإنسان بين العدل والمساواة

من عظمة الإسلام أنه يمزج بين العدل والمساواة؛ فالحق أنه لا حرية ولا مساواة بلا عدل، وبلا شريعة حاكمة للناس جميعاً على قدم المساواة وكل شعارات تنسى العدل ووسائل فرضه وحمايته هي شعارات فارغة المضمون تخدع المظلومين (!!) وفي الإسلام تختلط كلمة المساواة بكلمة العدل، فكأنَّها كلمة واحدة، أو عملة ذات وجهين، وهذا الحق لا شك فيه، فالعدل يفقد معناه إذا كان لأصحاب دين دون دين أو لقومية دون قومية، أو لطبقة دون طبقة، بل يجب أن يكون مطلقاً بلا حدود كما يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾[1].

فالمساواة في الحقوق والواجبات وأمام العدالة من الحقوق الأساسية للإنسان ولا يجادل في هذه الحقوق إلا عدوٌّ للإنسانية!!.

وقد كان الإسلام أسبق من كل النظم المعاصرة، وأزكى في تقدير هذا الحق الفطري.

إن الناس في الإسلام سواسية ولا تفاضل بينهم.. فكلهم لآدم وآدم من تراب ولا فرق بين رجل وامرأة. ،الغني والفقير سواء في القيمة الإنسانية، فلا تفاضل بين الناس في هذه الناحية إلا بالعمل الصالح والكفاءات الممتازة، وبما يقدمه كل فرد لربّه، ولإخوانه ووطنه.

---

(١) سورة النساء: الآية: ٥٨ .

لقد قضى الإسلام على الطوائف والعصبيات الجاهلية، فلا تفرقة بين الطبقات، ولا بين العبيد والأحرار.. فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرب إليه كثيراً من العبيد ويقدمهم على بعض الصحابة الأحرار، كما كان يرسلهم قادة على الجيوش التي تضم بين صفوفها خيرة الصحابة وأجلاءهم، فلا تفرقة في الإسلام من أجل حسب أو نسب. يقول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١).

ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٢).

وهذه المساواة في النواحي الإنسانية والتشريعية!!

ولم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة، بل جعلهما متساويين في القيمة الإنسانية، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم.. في خطبة الوداع: «يا أيها الناس! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد وكلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى.. ألا هل بلغت؟! اللهم فاشهد،، فليبلغ الشاهد منكم الغائب».

ويُروى أن أبا ذّر الغفاري تناقش مرة في حضرة النبي مع عبد زنجي، فاحتدّ أبو ذر على العبد وقال له، يا بن السوداء، فغضب الرسول عليه الصلاة والسلام وقال: «طفَّ الصاع، طفَّ الصاع (أيْ زاد

(١) سورة النحل: الآية: ٩٧ .

(٢) سورة الحجرات: الآية: ١٣ .

الأمر عن حدّه) ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح» فحزن أبو ذر ووضع خدّه على الأرض، وقال للعبد: «قم فطأ على خدي». فليس في الإسلام إنسان أكرم من آخر بفضل حسبه ونسبه، بل الكل سواسية، ولا تفاضل إلا بالعمل الصالح فقط.

وهذا من الناحية الإنسانية البحتة..

أما أمام قانون الإسلام المساواة قائمة كذلك: قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾[١].

وقال أيضاً: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾[٢].

وقال كذلك: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾[٣].

وينبئنا التاريخ الإسلامي أن تلك القواعد السمحة القوية حول المساواة أمام القضاء كانت منفذةً بحذافيرها أيام الرسول والخلفاء الراشدين، فيروى أن أسامة بن زيد وهو من أحبِّ الصحابة إلى رسول الله، جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليشفع في فاطمة بنت الأسود المخزومية، وكان قد حكم عليها بحد السرقة حيث إنها سرقت قطيفة

---

(١) سورة البقرة: الآية: ١٧٨ .

(٢) سورة المائدة: الآية: ٤٥ .

(٣) سورة النحل: الآية: ١٢٦ .

وحلياً، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنكر موقفه هذا على الرغم من حبّه له، ولم تشفع له منزلته من رسول الله، وقال له صلى الله عليه وسلم تشفع في حدّ من حدود الله؟! وقام فخطب الناس وقال: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»!!.

ولقد شكا يهودي علياً رضي الله عنه إلى عمر بن الخطاب في خلافة عمر، فلما مثلا بين يديه خاطب عمر اليهودي باسمه ولكنه خاطب علياً بكنيته فقال له: (يا أبا الحسن) حسب عادته في خطابه معه، فظهرت آثار الغضب على وجه علي فقال له عمر:

أكرهت أن يكون خصمك يهودياً. وتمثل معه أمام القضاء على قدم المساواة؟ فقال علي: لا، ولكنني غضبت لأنك لم تسوّ بيني وبينه، بل فضلتني عليه إذْ خاطبته باسمه، بينما خاطبتني بكنيتي..!!.

ويروى أن ابن عمرو بن العاص ضرب رجلاً من دهماء المصريين، حينما كان أبوه والياً على مصر، فأقسم المجني عليه ليشكوه إلى أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب)، فقال له: اذهب فلن ينالني شيء من شكواك. فأنا ابن الأكرمين؛ وبينما كان الخليفة عمر بن الخطاب مع خاصته ومعهم عمرو بن العاص وابنه في موسم الحج، قدم هذا الرجل عليهم، وقال مخاطباً عمر: يا أمير المؤمنين، إنّ هذا وأشار إلى ابن عمرو ضربني ظلماً ولما توعدته بأن أشكوه إليك قال: «اذهب فأنا ابن الأكرمين».. فنظر عمر رضي الله عنه إلى (عمرو) وقال قولته

المشهورة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً» ثم توجه إلى الشاكي وأعطاه درّته، وقال له: «اضرب بها ابن الأكرمين كما ضربك». وهكذا من الناحيتين (الإنسانية العامة) و(القضائية) تتجلى (المساواة) التي وضع الإسلام قواعدها بين الناس، فلا فضل إلا بالعمل الصالح في الدنيا والآخرة.. وأديانهم وأحسابهم موكولة إلى الله يوم القيامة، أما في هذه الدنيا فالشريعة تقوم على العدل والمساواة بين الناس جميعاً.

«٦»

رسالات السماء بين الدين والجنس

■ كان اليهود بالدين الصحيح الذي أنزله الله على موسى -الأمة المفضَّلَة على العالمين- فلما خان اليهود أمانَة الوحي، وحولوا الأمر إلى أفضلية عنصرية، حوّل الله الوحي عنهم إلى المسلمين العرب، وجعلهم - بالرسالة.. خير أمة أخرجت للناس.

لكن الإسلام يرفض أن يكون ذلك مرتبطا بالجنْس، بل يأمر بوضوح أن يكون ذلك مرتبطاً بالعقيدة الصحيحة والأخلاقيات والقيم، فلا خيرية إلا بالقيم المفتوحة لكل الناس، ولا يسمح القرآن بالظلم أو بالاستعلاء اعتماداً على هذه الخيرية المشروطة، بل يفرض الأدب والحوار الأخلاقي مع الجميع:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ﴾(١).

﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾(٢).

■ ويأمر المسلمين بأن يتركوا أمر الفصل النهائي في الأفضلية لله هناك في الآخرة، وليس في هذه الدنيا وأنْ يلتزموا بالأدب مع مخالفيهم، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٣).

---

(١) آل عمران: الآية: ٦٤ .

(٢) سورة سبأ: الآية: ٢٤ .

(٣) سورة الأنعام: الآية: ١٠٨ .

■ ومأساة الإنسانية المعاصرة تتجسد في موقفين:

١ موقف أهل التوراة القوي المنظم والفاعل والمؤثر والعالمي، والآخذ بكل أسباب القوة والهيمنة، وهم الذين يفرضون المفهوم العنصري الاستعلائي اللاقيمي على العالم، وتبدو الحضارة الأوروبية مخدّرة ومغيبة أمام الضغط التوراتي الصهيوني!!.

٢ وموقف المسلمين المنهزم المتخاذل المتآكل داخلياً، والمتصارع بين أجزائه سياسياً وفكرياً.. والمتخلف حضارياً (وهم أهل القرآن الذي يحمل مشروعاً إنسانياً غير عنْصري).

■ وهذه المأساة الإنسانية المتجسدة في هذا الخلل تجعل أصحاب الموقف الأول يمتدّون في فراغ دون مقاومة تُذكر، ودون وجود حقيقي للطرف الآخر، بحيث يلْفت إليه أنظار العالم الذي يشعر بالأزمة الإنسانية المعاصرة، ويكتوي بنارها، ويكاد يبصر آفاق المستقبل المظلم الذي ينتظره.

وليس ثمة من أمل في إنقاذ سفينة البشرية إلا بيقظة إسلامية تكفل وعي المسلمين بذاتهم وحقيقتهم ورسالتهم، كأمة شهيدة على الناس؛ ابتعثها الله لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.. وتأخذ -أيضاً- بكل أسباب القوة المادية والنُظُميّة الموجودة في الحضارة الأوروبية، وتضيف إليها الأبعاد العقدية والقيمية والتشريعية المنبعثة عن التصور الإسلامي، وتمزجهما في رؤية حضارية واحدة، ومشروع إنساني يقدم البديل الحضاري لكل الناس..!!.

إن الديانة اليهودية.. من خلال التوراة والتلمود والبروتوكولات مقدم مشروعاً عنصرياً يظهر خلاف ما يبطن، بل إن فيما يظهره قدراً كافيا يؤكد عدم اهتمامه بالإنسانية، بل نظرته إليها نظرة دونية، بحيث تبدو الإنسانية بالنسبة لليهود كالأبقار بالنسبة للآدمي، فعلى الأمميين أن يعملوا ولليهود أن يأخذوا نتائج هذا العمل، ولليهودي أن يسرق مال غير اليهودي، والفرق بين درجة الإنسان والحيوان هو بقدر الفرق بين اليهود وغير اليهود، ويصرح لليهودي أن يغشى غير اليهودي، ومن العدل أن يقتل اليهودي كل أممي (أي غير اليهودي) لأنه بذلك يقرب قرباناً إلى الله، وأخيراً.. فالهدف من خلق غير اليهود (خدمة اليهود)، وقد منحوا الصورة البشرية ليسهل التعامل معهم[١]...

هذه بعض قسمات الرؤية اليهودية للإنسانية.. أما الرؤية الإسلامية فهي رؤية (مساواة قائمة على العدل ومرتبط بالعدل لا تنفك عنه) وهي مبثوثة في آيات قرآنية كثيرة، وأحاديث نبوية وشواهد تاريخية، ونكتفي منها هنا بهذه الآية الكريمة التي تعدّ قانوناً شاملاً، وخطاباً إنسانياً عاماً، وميزاناً عادلاً ثابتاً بتنظيم بكل الناس.. يقول الله في القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٢].

(١) فؤاد حسنين علي: اليهودية واليهودية المسيحية ص ٢٧٢ نشر معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٨ .

(٢) سورة الحجرات: الآية: ١٣ .

فالناس جميعاً سواسية، واختلافهم للتعاون والتعارف، والتفضل بالعمل المقرون بالصلاح.. وحسابهم -بعد ذلك على الله.. وأما اختلاف الألوان والأجناس فلا قيمة له أمام عدل الله وشريعته وموازينه التي تزن الأمور بميزان عادل دقيق: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1].

(٢) سورة الزلزلة: الآية: ٧ -٨ .

«٧»

إنسانيات المزج بين الدين والقانون في الحضارة الإسلامية

■ في عصور وأديان مختلفة يحصرون الدين في مكان العبادة، ويتركون الحياة للشيطان يهدم فيها الضمير والأخلاق وينشر المفاسد والشرور، أما في الإسلام فالتلازم قائم وممتدّ بين الدين والحياة والروح والضمير والقانون.. وبدون الدين والضمير لا قيمة للقانون في المحيط اللائق بإنسانية الإنسان.. وهذا التلازم مما تتفرّد به تعاليم الإسلام!!.

■ وكما يوضح (مارسيل بوازار) في كتابه حول (إنسانية الإسلام) فإن الوحي المقدس كان -بلا ريب- الأسس الأولى للطابع الإلزامي للقاعدة القانونية، فأكسبها قوتها الخُلقية في النهج الذي يحدد العلاقات بين الأفراد والعلاقات بين الزمر الاجتماعية... فالقاعدة القانونية -بالتالي- ممتزجة وملازمة للوحي والروح والضمير..

■ وفي ضوء هذا فلا تمييز في العقيدة الإسلامية بين الموجب القانوني والواجب الخلقي، بل هما كيان واحد من شأنه أن يدفع إلى تطبيق القانون مع مراقبة الله والإحسان في كل شيء.

■ وقد ثبت من الناحية العلمية أنه لا يمكن الوصول إلى المثالية أو العالمية الحقيقية إلا بالارتفاع بالوجدان متعالياً فوق الظروف المادية الخارجية.

■ ولعل من السذاجة انتظار (مثل هذا المزج والأخلاق من كيان سياسي يقيم المجتمع على القواعد القانونية وحدها.. وقد اضطرت المجتمعات المادية القائمة على القانون وحده إلى الحديث عن (الوجدان العام) الذي يؤلف نوعاً من المقياس (للأخلاقية) المفروض فيها أن تعلّم الناس كيف يتصرفون حيال أبناء جلدتهم بطريقة تقترب بهم من الكمال، وتجمع بين القانون والمثل العليا الأخلاقية والإنسانية على النحو الذي تفرَّد به الإسلام في صناعته للحضارة.. صناعة واقعية.. لكنها -أيضاً- أخلاقية مثالية!!.

■ ويتساءل (بوزار) وهو يؤكد (إنسانية الإسلام) قائلاً:

- أليس من (الواقعية) والتقدمية أن يؤمن المرء بقيمة الإنسان وحريته وإرادته، وأن يتخيل إنشاء قانون تستطيع كل الشعوب (حتى التي تملك تدمير الإنسانية) الانضواء تحت لوائه؟.

- ولسوف يُسْهِمُ الإسلام في إنشاء ذلك القانون..

- بل إن الإسلام هو أكبر مؤهل للإسهام في هذا القانون.. القانون الإنساني الأخلاقي في نسيج واحد!!.

- والواقع أن المرء يدخل -وهو يدرس الإسلام- رحاب نظام من الأفكار يختلف كل الاختلاف عن القوانين الدينية -أو المدينة- الغربية، فالبناء القانوني أو الخلقي الأوروبي الذي يطمع أصحابه في أن يكون عالمياً يبقى بصورة رئيسية (أوروبياً) فليس فيه رجوع إلى إله يجب طاعته من كل الناس، وهو أيضاً إله لكل الناس، كما أنه لا توجد فيه أرضية اجتماعية إنسانية...

فالعنصرية هي نتيجة الحتمية؛ لأنه مرتبط بالمصلحة ومنسلخ عن الأخلاق، ولأن واضعيه -على أساس مادي قانوني- من الصعب أن يعبِّروا عن إنسانية تشريعية أخلاقية عامة.. وذلك على العكس من الإسلام.. دين الرحمة للعالمين..

«٨»

إنسانية العلم

العلم عبادة.. والعبادة علم

■ من قيمنا الحضارية التي أسدينا بها للإنسانية خدمات كثيرة، قيمة النظرة إلى العلم النافع على أنه عبادة، بل عبادة تفضل نوافل العبادات، وقد تفضل حلقات الذكر؛ لأنها -أي العبادة العلمية- عبادة بالعقل والفكر والقلب معاً.

وبينما كانت أديان أخرى وحضارات أخرى يتباهى أبناؤها بعدم إعمال العقل في فقه الكتب المقدسة وأمور الدين.. كان علماؤنا يطبقون أوامر القرآن فكراً أو سلوكاً -فيقرؤون تلبية لنداء ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ ويتعبَّدون بتحصيل العلوم تحقيقاً لقول الله في القرآن الكريم: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ وقوله تعالى لخاتم الأنبياء النبي الأمي عليه السلام: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾.

ولهذا كانت النظرة إلى العلم النافع على أنّه عبادة دافعاً كبيراً لإبداع حضارة علمية إسلامية!!

■ ومن هنا تَنَوَّعتْ فروع الحركة العلمية في ظل الحضارة الإسلامية عبر القرون كما تعدَّد أقطابها، فمن فقهاء على المذاهب الأربعة، إلى نحاة ولغويين وعروضيين ومحدثين ومفسرين ومقرئين ومتكلمين ورجال أدب وبلاغة ومؤرخين وجغرافيين وفلكيين.. إلى غيرهم من العلماء والدعاة.

وكانت الجوامع هي المراكز العلمية الأولى بطبيعة الحال، وكان جزء من كل مسجد يخصص لطلب العلم وللتثقيف العام، ومن أهم الجوامع التي عرفت في مصر في ذلك العصر جامع عمرو بن العاص الذي قام الولاة بإصلاحه أكثر من مرة، وكثرت فيه حلقات العلم فزادت عن أربعين حلقة، وكان فيه زوايا يدرس فيها الفقه بمذاهبه المختلفة، منها زاوية الإمام الشافعي ومنها زاوية المجدية (نسبة إلى مجد الدين البهنسي) ومنها الزاوية الصاحبية (نسبة إلى الصاحب تاج الدين محمد).. وكان العلم (الجوامعي) من أكبر الأدلة على العبادة العلمية!!.

■ وقد انتشرت المدارس الفكرية والعلمية بكثرة في هذا العصر وتنوعت بين مدارس شاملة تدرس المذاهب الأربعة مثل: المدرسة الصالحية، والمدرسة المنصورية، والقبة، ومدارس أخرى متخصصة في المذاهب، فللشافعية مدارسهم مثل: المدرسة الناصرية، والمدرسة الصلاحية بمصر، وللمالكية مدارسهم مثل: المدرسة القمحية والصاحبية.. وللحنفية مدارسهم مثل: المدرسة السيوفية والظاهرية، ولأهل الحديث والحنابلة مدارسهم مثل دار الحديث الكاملية، والمدرسة السلفية ومدرسة الطب بالقاهرة، ومدرسة الطب بالإسكندرية، وهناك المدرسة الفائزية بأسيوط، وكانت إسنا وأسوان من المراكز الثقافية الكبرى بمصر، وكذلك الفيوم والمنيا وقوص.

وما كان بمصر من حركة ثقافية وتعلمية كان مثله بالشام، ففي دمشق وُجدت مدارس فقهية مثل: المدرسة الصادرية، والمدرسة الغورية الكبرى، والمدرسة العزيزية، والمدرسة الأمينية، والمدرسة التقوية، والمدرسة العادلية

الكبرى، والمدرسة الشامية البرانية، كما وجدت المدرسة العذراوية والمدرسة الشريفية، والمدرسة العمرية، كما وجدت مدارس للحديث، كدار الحديث النورية، ودار الحديث الأشرفية، ومن مدارس القرآن التي وجدت المدرسة الوجيهية، كما وجدت مدارس للطب كالمدرسة الدخورية.

■ وكانت هناك مدارس شاملة بالقدس وبحماة، وبحران، وبحمص، وبحلب، وببعلبك، والرها، والمعرة، وغيرها من المدن والقرى.

وفي هذا العصر، وفي مدينة القدس التي تمثل قطب الحضارة انتشرت حركة علمية شاملة..

ففي هذه المدينة المقدسة عُني عدد من العلماء بالرياضيات، ومنهم شهاب الدين بن الهائم، شيخ المدرسة الصلاحية، وكان متقدماً في الفرائض والحساب والجبر والمقابلة، متفوقاً على أقرانه فيها، وقد انتهت إليه الرياسة فيها، ورحل إليه الناس للأخذ عنه.. ومنهم تلميذه ابن شرف المقدسي -واشتغل علماء آخرون بالعلوم الرياضية في بيت المقدس، ومنهم شرف الدين أبو عبد الله محمد الصفوي، وعلاء الدين أبو الحسن علي بن عثمان الحواري الخليلي المقدسي الشافعي، وأبو العباس المقدسي، وبرهان الدين بن أبي شريف.. وغيرهم.



■ لقد نظرنا في حضارتنا الإسلامية -لكل العلوم بمقياس (العلم النافع) الذي يقود إلى العمل الصالح وتعمير الحياة باسم الله وفي سبيل الله وليس لمجرد المجد الدينوي واستغلال الآخرين بالقوة العلمية كما تفعل الحضارات المعاصرة..

وتلك قيمة أخلاقية كبيرة، قدمناها للإنسانية، ويجب أن نعمل على استئنافها وتوجيه الإنسانية إليها خروجاً من مستنقع استخدام العلم في تحقيق القوة لقهر الآخرين، وتخريب الحياة!!

«٩»

إنسانية الإنسان المتساوية.. في مقابل العنصرية المستعلية

تثبت الطريقة التي كان النبي عليه السلام وخلفاؤه رضي الله عنهم يخاطبون بها ملوك الشعوب غير المسلمة ورؤساءها، أنهم كانوا يعاملونهم على قاعدة المساواة الإنسانية، لا فرق بين عربي وعجمي ومسلم وغير مسلم ومواطن وغير مواطن في الاعتراف بإنسانية الإنسان...

يؤيد هذا سعي الرسول عليه السلام لكي يقيم سفارات بعد إقامة المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة مباشرة.

وكان من أهدافها العامة بعث الروح الإنسانية والتواصل الإنساني، كما كان من أهدافها الخاصة عقد هدنة أو صلح، أو المفاوضة لتبادل الأسرى، وكل هذا يصب في مجال تحقيق إنسانية الإنسان.

وكان عدد من هذه البعثات يهدف أيضاً إلى دعوة الأجنبي إلى التعرف الموضوعي على الإسلام عن طريق التقديم السلمي له، ليبين الرشد من الغي، ومن شاء -بعد ذلك- أن يكفر أو يؤمن فهو حر في اختياره!!

ويبين التاريخ أن السلطات المسلمة كانت مرتبطة بعدد من الواجبات الشرعية السلمية في تنظيم علاقاتها الخارجية، دون أن تنسى مع ذلك مهمة نشر الإسلام في العالم بالطرق الحوارية والثقافية أو غمطوه إنسانيته أو حقوقه، أو فرضوا عليه القهر الفكري أو الديني أو اعتبروه برابرة.. بل اندمجوا فيه وصاهروه وتعايشوا معه، وتساووا معه في صفوف الصلاة وفي جوع الصيام وفي مشاق الطواف إذا اعتنق الإسلام.

أمـا إذا لم يعـتنق الإسـلام فـهـو حـرّ، وهو إنسـان، وهو مـسؤول عن اختياره وله ما للمسلمين وعليه ما عليهم.. الغدر بحقوقه خيانة لذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلاً عن أنها خيانة وطنية، وتفرقة عنصرية يرفضها الإسلام..

وكل ذلك مرفوض إسلامياً!!.

فـإذا جـئنا للمـوقف المقـابل.. مـوقف الحـضـارة الأورأمـريكيـة منا.. وجدنا الأمر على العكس من ذلك.

فـالـغـرب لم يقـبل منح الإمـبـراطورية الـعـثمـانية (حق الناس) إلا في منتـصف القـرن التـاسع عـشـر مع إضـافـة بعض التـحـفظات بسـبب إنسـانيـتهـا البـربرية (كمـا يقـول بوازار).. ومـازال العـالم الآن يقـسم من كبار إلى عالم أول، وثان، وعالم ثالث، ومازال هناك من يقول إن الجنس الأبيض أفضل من الجنس الأسود أو الأصفر، ومـازال هناك من يسمي المسلمين همجاً وبرابرة، ويعطي نفسه وحده صفة الحضارة وحق السيادة، وفرض المقولة المسماة بالعولمة لصالح قيم معينة وطريقة معينة في الحياة!!.

بينمـا كـان الإسـلام يعتـمـد المسـاواة الإنسـانيـة، ويسـعى للتـفـاعل والتكامل مع العـالم، ومـا زال أهله وسيبقون مجـردين من أي استـعـلاء عنصري.. لأنه فتنة منتنة، وجاهلية عفنة.. فالناس جميعاً من آدم، وآدم من تراب، وهم سواسية كأسنان المشط..

هذا هـو الإسـلام.. دين المسـاواة والإنسـانيـة.. وهـذا هو مـاضي أعدائنا وحاضرهم العنصري الاستعلائي المدمر.

«١٠»

القوميات الإنسانية المفتوحة.. في الإسلام

من هدايا أوروبا القاتلة للعالم فكرة القومية العنصرية التي كانت سبباً في إشعال عشرات بل مئات الحروب، وكما يموت أولاد صانع السمّ بالسمّ أحياناً، كذلك أوقع الله بين الأوروبيين فاشتعلت بينهم حروب قومية استمرت قروناً، وظهرت بينهم نظريات كادت تقضي على الجنس البشري مثل النازية في ألمانيا، والفاشية في إيطاليا والسلافية عند الروس، ثم تطورت هذه النظريات إلى أيدولوجيات وزعت شرورها على العالم، فظهرت الطورانية في تركيا لمحاربة الإسلام، والقومية العربية اللادينية في كتابات بعض الأحزاب وبعض المفكرين، ودفعت الأمة الإسلامية. ثمناً غالياً، لأنها مشت خلف أوروبا حذوة النعل بالنعل دون التعرف على الحقائق من دينها وحضارتها.

إن الإسلام لا يحارب الشعور الوطني أو القومي أو القبلي شريطة أن يكون إنسانيا ومنفتحاً وأن يصهرني في بوتقة الإسلام لكي تكون له رسالة عالمية. ولكن يعترف بوحدة الأصل الإنساني، وبأنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالعمل والتقوى، وبأن الناس خلقوا من آدم وآدم من تراب، فليس هناك شعب مختار ولا قومية فوق الجميع كما ظهر في أوروبا، وأدى إلى كثير من الكوارث!.

أما الإسلام فقد اعترف -كما ذكرنا- بالقوميات والوطنيات، لكنه نسج منها قوة إيمانية إسلامية تقوم على الحبّ والمساواة والإخاء..

وبجميع الأجناس الإسلامية صنعت حضارتنا، وافتخر الجميع بالعروبة القرآنية المهدية.. حباً وإيمانياً، وصنعوا جميعاً حضارة الإسلام تحت راية عروبة القرآن لا عروبة أبي جهل..

فبالعرب العظماء.. وبصلاح الدين الكردي العربي.. وبالمماليك المعربين.. وبالأتراك المعربين... بكل هؤلاء الذين يقرؤون القرآن العربي.. وبكل المصلين بالكلمات العربية.. المتجهين إلى قبلة تقع في بلد عربي.. والذين يحجون كل عام إلى مدينة عربية.. ويؤدون المناسك بلسان عربي.. (دون أن يحسوا بأي شعور قومي).. بهؤلاء وبغيرهم الذين أصبحت العروبة عندهم روحاً وفكراً وولاء مطلقاً وجزءاً من العقيدة.. بهؤلاء نجح العرب في حطين وعين جالوت ومات المصريون شهداء في ليبيا.. أيام الغزو الإيطالي.. واستشهد سليمان الحلبي في مصر أيام الغزو الفرنسي.. ووقف العرب وخلفهم المسلمون جميعاً في عاشر رمضان ١٣٩٣هـ.

إن العروبة روح وعاطفة. وتفكير عربي، وانتماء عربي!

وكلمة (اللسان) في العربية تعني العضو الذي يترجم عما في الفؤاد وإلا فإن (اللسان المجرد) الذي لا يعكس فكراً ولا شعوراً ولا انتماء هو لسان الببغاء..

إن اللسان العربي في حقيقته يعني التفكير العربي، والروح العربية وأسلوب الحياة العربي.. كما يعني الإيمان بالتراث العربي.. أو بإيجاز شديد (الإيمان بروح الحضارة العربية) التي يعبر عنها اللسان العربي باللغة العربية..

وهذا وحده هو المقياس لتحديد (هوية) الإنسان العربي، ومن هنا كانت ضرورة الإسلام -كحضارة- لكل عربي، حتى المسيحي العربي، لأن الإسلام هو روح هذه الحضارة وهو فكرها وتراثها ورسالتها في المستقبل.

وقد وصل بعض المسيحيين العرب المخلصين إلى هذه الحقيقة، فاعتزوا بالإسلام، ولم يكيدوا له، أو يتآمروا عليه، بل جاهروا بحبه والاعتراف بفضله.

- إنها قوميات يقررها الإسلام..

- لكنها مفتوحة إنسانية وغير عنصرية.

إنسانية الإسلام في نظرته

إلى الأسرة والمرأة

«١»

التعاون العائلي في سبيل الآخرة والجنَّة

■ الأسرة المسلمة أسرة تقوم على التكافل المعنوي والمادي معاً.

فليس بالتكافل المادي في أمور الدنيا يتحقق التكافل الصحيح الذي تشير إليه الآية الكريمة ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ فهذا التعاون هو أسمى أنواع التكافل الباقي والخالد...

■ وما الفائدة في نهاية الأمر إذا نجحت الأسرة المسلمة في قيادة أبنائها إلى الأموال والمناصب الدنيوية، ثم دخلوا جهنم في الآخرة لفسقهم وترفهم وانحرافهم عن دين الله.

إنها الخسارة الحقيقية مهما كانت أرباح الدنيا الفانية الزائلة المحدودة...

■ وفي تاريخنا الإسلامي صفحات حافلة بصور البطولة الصادقة في كل ألوان التكافل العائلي، وصور التضحية والإيثار، وكذلك في ميادين الشجاعة؛ فمواقف الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة، وهو يدعو إلى الله صابراً محتسباً واثقاً بنصره أروع أمثلة للشجاعة، وكذلك مواقفه في المدينة، وهو يجابه قوى الشرك والنفاق، ولؤم اليهود.

هذه المواقف الكريمة تمثل القدوة الأسمى التي اقتدى بها المسلمون..!!

■ وقد سار خلفاؤه الراشدون رضوان الله عليهم على نهجه لا تصدهم عن الجهاد في سبيل الله عقبات، ولا تذهب بألبابهم الدنيا، بعد أن ملكوا كنوز الأرض، ورفعوا راية الإسلام في أكثر الربوع.

■ ومن صور الشجاعة الرائعة التي رواها تاريخنا، صورة التابعي الجليل (صلة بن أشيم العدوي) وأسرته (وهو من كبار التابعين من أهل البصرة ت سنة ٧٧هـ).

فقد قدَّم كل أعضاء الأسرة تضحيات كبيرة في سبيل الإسلام!!.

وإنها لأسرة مباركة بكل المقاييس..!!.

■ ففي إحدى معارك المسلمين مع الفرس تقدم (صلة العدوي) وصاحب له، يمهدان الطريق للمسلمين، وينْشران الرعب في جيش المشركين، ولما علم المشركون بأن كلّ ما أصابهم من خوف ورعب، إنما كان على يد اثنين من المسلمين ازداد هلعهم، حتى قال بعضهم لبعض: إذا كان رجلان من المسلمين صَنَعَا بنا هذا. فكيف لو قاتلونا كلهم؟! وانتهى رأيهم إلى الاستسلام للمسلمين، والنزول على شروطهم وكفى الله المؤمنين القتال. بفضل شجاعة (صلة) وصاحبه!! رضي الله عنهما.

■ وفي معركة أخرى خرج (صلة) وولده مُجاهَدين في سبيل الله، ولما بدأت المعركة قال (صلة) لولده: تقدَّم فقاتل حتى أحتسبك عند الله، فسارع الابن ملبّياً رغبة أبيه، حتى نال نعمة الشهادة على مرأى من والده الشجاع..!!.

■ ثم تقدم (صلة) بعد ابنه يقاتل، حتى استشهد بدوره، ولقي الله مطمئنا راضياً، وكأنه كان يريد الاطمئنان على استشهاد ابنه وفوزه بالجنَّة!!

■ ولم تكن زوجة (صلة) الزاهدة العابدة (معاذة بنت عبد الله العدوية) أقلَّ بطولة وشجاعة من زوجها وولدها. فعندما ذهبت النسوة لتعزيتها فيهما، رفضت العزاء وقالت لهن: «إن كنتن جئتن لتهنئتي فمرحباً بكن، وإن كنتن جئتن لتعزيتي فارجعن»!!.

■ وهكذا كانت الأسرة كلها (صلة، وولده، وزوجته) على هذا المستوى الرفيع من الإخلاص لدين الله والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة.. وقد يأخذنا العجب - كل العجب - من هذا الأب الذي يريد أن يطمئن على استشهاد ابنه قبل استشهاده، مع أن العكس هو السائد بين الناس الذين يريدون أن يخلفهم أبناؤهم في ثرواتهم وشؤون دنياهم، وقد يبيعون دينهم من أجل دنيا أبنائهم، ناسين الميزان الصحيح للحبِّ، فدخول ابنك الجنة، وبقاؤه فيها ملايين السنين هو الأهم والأجدى حتى بمقياس المصلحة البحتة، وبمقياس التجارة العملية.. فالنسبة بين التجارة مع الله (التجارة في سبيل الآخرة) أعظم -كما وكيفاً- بملايين المرات من أية تجارات أو أرباح يمكن أن يكتسبها أي إنسان في هذه الدنيا..

■ المهم أن نفكر بعقل وعلم.. لكنه العقل المؤمن الذي يحسب دون ضغوط الغرائز والأهواء، ولكنه العلم الصحيح الذي تمتد رؤيته عبر مساحة الوجود الحقيقية.. مساحة الدنيا والآخرة..

وليس مساحة الدنيا المحدودة التي لا تساوي نسبة مليونية بالنسبة للآخرة..!!

لأن الآخرة هي دار القرار، ولأنها خير وأبقى.. وهكذا فهم التابعي الجليل (صلة بن أشيم العدوي) المعادلة الحقيقية.. وهكذا فهمتها أسرته الصالحة.

.. وهكذا يجب أن يفهم المسلمون الصادقون.

«٢»

الوفاء بين الزوجين طريق السعادة في الدارين

■ هذه امرأة أخلصتْ لزوجها فأنقذته من النار بعد أن هداها الله إليه.. وهي صحابية جليلة وقفت انطلاقاً من حبِّها لزوجها -موقفاً قوياً في ساعة امتحان صعب، فاندفعت- بعد إسلامها مباشرة تحاول إنقاذ زوجها الذي كان.. كما كانت هي من ألدّ أعداء الإسلام.. فلما هداها الله وأسلمت يوم الفتح الأعظم أبت إلا أن يشاركها زوجها الإسلام كما شاركها الجاهلية، والعمل للإسلام كما شاركها العمل ضدّ الإسلام!!

■ هذه الصحابية الجليلة القدر هي: «أم حكيم بنت الحارث بن هشام» القرشية المخزومية التي تأخر إسلامها؛ إذْ آمنت ككثير من أهل بيتها يوم فتح مكة العظيم في السنة الثامنة للهجرة، وكان ممن أسلم مثلها في ذلك اليوم أمها «فاطمة بنت الوليد بن المغيرة» القرشية التي سبقها إلى الإسلام أخواها الوليد بن الوليد، وخالد بن الوليد، وكل منهما طيِّب الذكر في تاريخ مسيرة الإسلام والتمسك به والدفاع عنه والجهاد في سبيله.

إنها (أسرة) كاملة أبطأت في قبول الإسلام، لكنها عندما هداها الله قدَّمت صفحات رائعة، فاستحقت أن توصف بهذا الوصف الكريم: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»..

■ لقد ارتفعت يوم فتح مكة راية الإسلام خفاقة، وجاء نصر الله لعسكره دون قتال يذكر، فكان بحق فتحاً مبيناً، وكان نقطة انتقال في مسيرة الدعوة الإسلامية، وفي تاريخ الإنسانية جمعاء.

■ ولم تَسَعْ فئة قليلة ممن ناهضوا الإسلام والمسلمين من قبل إلا أن تفرّ خارج مكة، بل وخارج حدود الجزيرة العربية شعوراً بالذنب وخوفاً مما قد تلقى جزاء ما اقترفته أيديهم وألسنتهم من إيذائهم صحابة رسول الله وبطشهم بهم بطش غادرين لم يرعوا حرمة، ولم يقدروا صهراً ولا قرابة، فكان عداؤهم للإسلام ولرسوله ولأتباعه شديداً تجاوز الحدود الإنسانية والأخلاقية!!.

■ وكان من هذا النفر الذي فرّ «عكرمة بن أبي جهل» زوج أم حكيم، التي كانت قد أسلمت مع من أسلم في يوم الفتح، وقذف الله في قلبها الإيمان وحبّبه إليها، كما قذفه في قلب أمها فاطمة بنت الوليد، وساءها وأحزنها ألا يفوز زوجها بالإسلام ورضا الله والجنة، بعد أن استشعرت هي حلاوة الإيمان.. ونعمة التوحيد..

وقد عزّ على أم حكيم أن يكون مصير زوجها عكرمة بن أبي جهل هذا المصير السيئ، وهو الذي شاطرها الحياة حلوها ومرها، وعاشا معاً جنبا إلى جنب في مرها وحلوها.. قبل الإسلام.

■ ولهذا فعندما انتهى الرسول عليه السلام من البيعة وقفت أمامه وقالت له بصوت كله رجاء وأمل:

«يا رسول الله.. إن عكرمة زوجي قد هرب منك إلى اليمن، وخاف أن تقتله فأمّنه يا رسول الله (أي أعطني الأمان له من القتل يا رسول لله)..

فقال لها النبي الكريم الرحيم عليه السلام: «هو آمن يا أم حكيم»...

فكأنه عليه السلام بهذا الأمان حرَّك فيها كل ما بينها وبين زوجها من حب ووفاء.. فانطلقت مسرعة تحاول اللحاق بزوجها قبل أن يفوت الوقت ويترك جزيرة العرب..

وقد أدركت (أم حكيم) زوجها عكرمة وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تهامة حيث ركب البحر، وأوشكت السفينة على الإقلاع، فنادته بأعلى صوت في شبه توسل قائلة له:

«يا ابن عم... جئتك من عند أوصل الناس وأبرّ الناس وخير الناس..!!.

«يا ابن عم: لا تُهلك نفسك».. (هلاكاً دينوياً وأخروياً معاً...).

«يا ابن عم:... إني قد استأمنتُ لك محمداً.. ولقد كلَّمته فأمنَكَ»... وكأنَّ كلماتها وقعت برداً وسلاماً على عكرمة، وكأنه كان ينتظرها.. ولهذا فعندما أدرك عكرمة أن ما قالته أم حكيم إنما هو عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وهو يعرف كما يعرف الجميع أن محمداً إنْ قال وفَى، وأنه يوفِّي بالعهد، وإن إخلاف الوعد.. في دينه شعبةٌ من شعب النفاق.. عندما أدرك عكرمة حقيقة الصدق في كلام زوجته أم حكيم سرعان ما عاد إليها ومعها قافلين معاً إلى مكة المكرمة ليقابلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليعلن عكرمة بين يديه إسلامه، وليصبح بعد ذلك -عكرمة بن أبي جهل- من جنود الإسلام وقادة معاركه الجهادية، وكأنه ضمن إطار الأسرة التي ينتمي إليها بالمصاهرة كان يريد محو آثار الماضي، مع علمهم بأن الإسلام يجبّ ما قبله، إلا أن طبيعتهم تأبى إلا أن يكونوا أقوياء في ظل الإسلام أكثر مما كانوا في ظل الجاهلية..

وثمة درس آخر قدمته الزوجة الوفية (أم حكيم).. فليس حب الزوجة لزوجها شأناً من شؤون الدنيا فحسب، بل هو شأن من شؤون الآخرة بالدرجة الأولى.. وصدق الله العظيم الذي وجَّه إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى:﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾.. فالحبّ الباقي والخالد.. هو الحب في سبيل الله.. دنيا وآخرة..

وهكذا كانت الزوجة الوفية والصحابية الجليلة أم حكيم بنت الحارث.. رضي الله عنها..!!.

«٣»

حين يكون البيت كريماً يكون الأبناء صالحين

للبيت أثره الحاسم في تكوين الإنسان الصالح.. ويعدّ المناخ العام مثل البيئة، فهو يؤثر في الإنسان من كل جوانبه، بطريقة شعورية وغير شعورية، وطريقة مباشرة، وغير مباشرة.. ومن هنا حرص الإسلام على اختيار الزوجة من بيت صالح؛ لأن العرق دساس، وحذَّر من المرأة الحسناء الجميلة التي نبتت في منبت السوء، حتى ولو كان ظاهرها عادياً.. كما أمرنا باختيار بطانة الخير، وحذَّرنا من بطانة السوء؛ لأنها كنافخ الكير (الحديد) الذي لا يصيبنا من نفخه إلا بقايا الشظايا النارية والروائح الكريهة الفاسدة..

■ وقد شاءت إرادة الله أن تسوق الخير لبيت أم سلمة، لأن زوجها (أبا سلمة) كان صالحاً، ولأن (أم سلمة) قد جاهدت معه وتحملت الكثير في سبيل الهجرة، ثم تَحمَّلت بصبر مأساة وفاة زوجها الصالح أبي سلمة.. وإكراماً من الله لها ألْهم نَبِيَّه الكريم محمداً صلى الله عليه وسلم أن يطلب الزواج منها مع علمه عليه السلام بأن أبا سلمة ترك لها عديداً من الصبية يحتاجون إلى الرعاية المادية والمعنوية.. بل لعلَّه لوجود هؤلاء الصبية ألهم الله نبيه أن يتقدم للزواج من أم سلمة. فلما علمت برغبة الرسول في الزواج منها كان أول ما ذكرته هم هؤلاء الصبية الذين في كنفها، والذين

لابدَّ أن ترعاهم.. ولما علمت بأن الرسول عليه السلام يحرص على مشاركتها الأجر والثواب في رعايتهم وتربيتهم وكفالتهم فرحت بالأمر كل الفرح ووافقت على الزواج برسول الله عليه السلام.

ومن هؤلاء الصِّبية صاحبتنا التي نخصها بهذا الحديث..

■ كانت (زينب) بنت أبي سلمة وأم سلمة (أم المؤمنين) قد ولدت بالحبشة يوم هاجر إليها أبواها (أبو سلمة وأم سلمة)، وقال آخرون: ربما كانت طفلة يوم هاجر أبوها وأمها، وإنهما دخلا الحبشة وهي في رفقتهما.. ولا يمكن ترجيح أحد الرأيين، (كما يقول أستاذنا الدكتور حسن حبشي..).

■ لكن دلالة هذا في الحالين أنها كانت صبية صغيرة يوم عرفت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزادت هذه المعرفة الشريفة حين قضت (زينب) فترة من حياتها في كنفه (عليه السلام) وفي بيته؛ حيث رعى رسول الله أم سلمة وأولادها بعد وفاة أبي سلمة وزواجه عليه السلام منها، ثم تزوجت زينب من «عبد الله بن زمعة بن الأسود الأسدي» وكان من أشراف قريش.. وكان زواجها -بطبيعة الأمور- برعاية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكل من رعاه الرسول مادياً رعاه كذلك معنوياً وإنسانياً.

■ وقد حفظت زينب عن النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً من الأحاديث النبوية الشريفة، وروت عنه وعن أزواجه ومنهن أمها (أم سلمة) وعائشة وأم حبيبة وغيرهن رضوان الله عليهن جميعاً. فقد كان الرسول عليه السلام نوراً ومعلماً لكل من حوله، ولكل من يحيطون به، فكل أقواله وأعماله تشريع وتربية وهداية ورحمة للعالمين.

وكانت زينب بنت أبي سلمة معدودة في هذا الرعيل من الفقهاء الذين يرجع إليهم وإليهن في الفقه.

لقد أفادها قربها العائلي والمكاني من رسول الله صلى الله عليه وسلم فتخرجت من مدرسته الشريفة.. وأصبحت موجهة ومفتية ومعلمة..

قال أحدهم: «كنا إذا ذكرنا امرأة فقيهة في المدينة ذكرنا زينب بنت أبي سلمة» رضي الله عنها..

■ وقد شَارَكَتْ -وهي امرأة- في حلِّ كثير من المشكلات الاجتماعية والعائلية، وكانت ملجأ كثير من أصحاب المشكلات.. ومما يروى في ذلك أنه حدث أن غضب الصائغ، وهو أبو رافع نفيع على امرأته، واشتدَّ الغضب بينهما فلم يجد إلا اللجوء إلى صاحبتنا الصحابية زينب بنت أبي سلمة، فوجد عندها الجواب الصحيح، وإنه ليقول في شأنها: «ذهبنا إلى زينب وهي يومئذ أفقه امرأة بالمدينة».. وهذا يدلُّ على الدور الريادي والاجتماعي للمرأة المسلمة في صدر الإسلام، وما زالت المرأ المسلمة مَدْعوّةً للقيام بهذا الدور.

■ وقد قامت (زينب بنْت أبي سلمة وأم سلمة) بتربية أولادها تربية نبوية كريمة مستقاة من مناخ النبوة التقيّ.. وقد جاهد ولداها لها جهاداً عظيماً، وقدَّما كبيراً في خدمة الدعوة الإسلامية، وقد جرى عليهما قضاء الله فاستشهدا راضيين، وحُمل الاثنان إلى أمهما، ووضعا بين يديها مقتولين، فاستعانت بالصبر وقالت: «إنا لله وإنا إليه راجعون».

ولم تكن هذه اللحمة الدالة على قوة الإيمان وقوة الصبر والثقة في الله والدار الآخرة.. لم تكن شيئاً غريباً بالنسبة لصحابية جليلة مثل (زينب بنت أم سلمة - أم المؤمنين) فهي أمر مستقيم كل الاستقامة مع البيت الذي نشأت فيه، والأبوين الصالحين اللذين تنتمي إليهما، والتربية التي عاشت في رحابها على يد رسول الله وإمام المتقين محمد عليه الصلاة السلام.. الذي رعاها صبيًّة، وظل معلماً لها وراعياً على مستوى عمرها كله.. إكراماً لأم سلمة.. أم المؤمنين وزوجة الرسول رضي الله عنها..

ورضي الله عن زينب بنت أبي سلمة وأم سلمة!!.

«٤»

إنسانية المرأة وإيجابيتها في حضارتنا الإسلامية

■ اهتم الرسول صلى الله عليه وسلم بتعليم المرأة وإتاحة فرص العمل لها بعد أن كانت محرومة من أبسط حقوقها الإنسانية. وحسبها أنها كانت توأد مخافة العار.

■ وكان من نتائج هذه التربية الإسلامية للمرأة أن حرصت المرأة المسلمة على منافسة الرجل في طلب العلم، وفي مزاولة الأعمال الجديرة بها.

■ وقد طلب النساء من النبي صلى الله عليه وسلم أن يلقي عليهن دروساً خاصة، وأن يفرد لهن يوماً لأن الرجال قد غلبوا عليهن في ذلك (!!) فاستجاب النبي لهن صلى الله عليه وسلم (كما أورد البخاري).

■ ومما لا شك فيه أن الاهتمام النبوي بتعليم المرأة كان له أثره الكبير، فتخرج من مدرسة النبوة عالمات داعيات كنّ ملأن سمع الدنيا وبصرها، فهذه هي السيدة عائشة رضي الله عنها يصفها الإمام علي بقوله: «لو كانت امرأة خليفة لكانت عائشة».

وهذه هي الشفاء بنت عبد الله انتدبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لتعليم زوجته حفصة بنت عمر رضي الله عنهما الكتابة.

■ وقد أورد القلقشندي «أن جماعة من النساء كن يكتبن».

■ ومن العلوم التي برع فيها النساء في صدر النبوة: حفظ القرآن، وكان من أشهر الصحابيات الحافظات أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث الأنصارية.

وكانت أم ورقة من الحافظات المتميزات، ولذلك أرادت أن تَشيع قراءة القرآن، وأن تعلم بنات جنسها، فطلبت من رسول الله أن تقيم مسجداً وتَؤم في بيتها، فأذن لها رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، واختار لها مؤذنا شيخاً كبيراً، وكانت قراءتها تُسمع خارج البيت من قبل المارين بقرب دارها.

ومن المشهورات بحفظ القرآن وتلاوته: أم يعقوب التي كانت عارفة بالتلاوة وأحكامها، وبعلم الفقه.

■ ومن أهم المهن التي برعت فيها المرأة في المجتمع الإسلامي الحرف التالية:

١ الغَزْل: (الحياكة) وهو تجهيز المادة الأولية من خيوط الصوف أو الشعر لتستعمل في إنتاج الملابس، أو الأردية والأغطية، أو الحبال لاستعمالها في الإسعافات الأولية وغيرها وقت الغزوات.

٢ حياكة الحصر: من خوص النخيل وغيره، لاستعماها في فرش البيوت أو المساجد أو غيرها.

٣ دبغ الجلود وتصنيعها: وقد برع في هذا التخصص زوجات النبي صلى الله عليه وسلم وعلى رأسهن السيدة زينب بنت جحش حيث كانت صناع اليدين فكانت تدبغ وتتصدق بعد

تصنيع الجلود وبيعها، وكذلك السيدة سودة بنت زمعة رضي الله عنها، كانت بارعة في دباغة الجلود الطائفية وهي الجلود القادمة من مدينة الطائف.

■ ومن المتخصصات البارعات في الدباغة الصحابية الجليلة أسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنها.

■ وهكذا قدمت حضارتنا صوراً من تفعيل دور المرأة الاجتماعي والاقتصادي لم تعرفه حضارات من قبل الإسلام.. وقد تتبع هذه الصور كثيرون من بينهم الدكتور ليث جاسم في كتابه عن المؤسسات الاجتماعية في الحضارة الإسلامية.. فجزاهم الله خيراً.

■ وهذا في وقت كان يسمى (العصور الوسطى) أي عصور الظلام في أوروبا.. ومن الإسلام أخذت أوروبا تفعيل دور المرأة، إلا أنها حادت بهذا التفعيل عن طريقه الصحيح، بينما حافظ الإسلام على إنسانية المرأة وكرامتها.. ودورها الحضاري.. في سياق واحد.

«٥»

المرأة الثابتة على الإيمان تقود قبيلتها للإسلام

■ للمرأة -مثل الرجل- نصيبها في الدعوة إلى الله وفي التربية الإسلامية، فقد جعلها الله صنْواً للرجل سواء بسواء في العقائد والعبادات، ولم يفرق بينها وبين الرجل في بعض الشرائع والمعاملات إلا مراعاة لفطرتها، ولكي تتكامل مع الرجل، ولا تتوازى معه فيقع التصادم والتنافر، فهما -في النهاية- من نفس واحدة، ويجب أن يظلاً روحاً واحدة في جسدين بلا تشاحن ولا انفصال.. ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ (سورة آل عمران).. وهذا يقتضي الحقوق المتكاملة لا المتوازية.. وكذلك في الواجبات!!.

■ وقد أكرم الإسلام المرأة وصانها عن الابتذال، وفتح لها آفاقاً كثيرة للتعليم والعمل والدعوة ومشاركة الرجل في بناء الحياة في داخل البيت وخارجه، في إطار تنظيم أخلاقي بديع، يحفظ الأخلاق والإطار الإنساني والغايات الكريمة للحياة..

■ وعندما ندرس السيرة النبوية الكريمة نجد المرأة المسلمة (أمًّا زوجة) مشاركة في المسجد النبوي وفي العمل الاجتماعي والجهادي من خلال مساحة واسعة تمتّد إلى كل المواقع التي تسمح فطرة المرأة بالعمل فيها.. وقد رأينا الصحابيات الجليلات يأخذن عن رسول الله الحديث،

ويروينه، ويتعلمن من رسول الله، ويدعون إلى الله، بالعلم الذي تعلَّمنه، ويتلقين القرآن، ويحفظنه ويعلمنه للآخرين، ويشعرن بأنهن مسؤولات عن الإسلام مثل الرجال.. سواء بسواء.

■ أم شريك غزيّة بنت جابر العامرية نموذج نقدمه دلالةً على صدق ما نقول.. وما يقوله الإسلام والتاريخ أيضاً..

لقد أسلمت أم شريك «غزية بنت جابر بن حكيم العامرية»، ثم لم تقف عند إسلامها، فجعلت تدعو النساء إلى الإسلام، وترغبهن فيه وتحببه إليهن، وتخرج من بيت إلى بيت، وتنتقل من امرأة إلى امرأة، حتى انتشر أمرها وجاءها أهل زوجها مكشِّرين عن أنيابهم غاضبين من إسلامها ومن دعوتها إلى الإسلام، وكانوا يرمونها بكل سوء ويريدون أن ينالوا منها ومن دينها، وكرهت عشيرة (أبي العكر) أن تكون زوجته (أم شريك داعية للإسلام على هذا النحو) وتقول هي في ذلك بأسلوبها:

-لقد جاء قوم زوجي فارتحلوا بنا من دارنا ونحن كنا بذي الخلصة، وكان هو من صنعاء.. فساروا يريدون منزلاً، وحملوني على جمل عجوز هو شرّ ركابهم وأغلظه.. وراحوا يطعمونني الخبز بالخّل، وحرَّموا عليَّ الماء فلم يسقوني قطرة منه. (مما أجهدها كل الإجهاد، فالصبر على الطعام أو رداءته أهون من الصبر عن الماء!!) وتقول أمّ شريك:

■ ثم كان يوم قد انتصف نهاره وسخنت شمسه ونحن قانطون، فنزلوا ثم ضربوا خيمتهم، وتركوني في الشمس حتى ذهب عقلي وسمعي وبصري. (نتيجة عدم شربها الماء لمنع المشركين الماء عن أم شريك).. ثم تتابع قائلة:

فوالله إني على ذلك، وقد بلغ منّي الجهد غايته إذ وجدت دلواً على صدري، فأخَذته فشربتُ منه نفساً واحداً، ثم انتُزع منّي الدلو، فذهبتُ أنظر فإذا هو معلق بين السماء والأرض فلم أقدر عليه.. ثم تدلّى إليّ ثانية فشربت حتى رويت، وأهرقت على رأسي ووجهي وثيابي».. وهي رعاية من الله سيقت لأم شريك حتى لا تموت عطشاً، وعندما سألوها عن مصدر الماء الذي على ثوبها قالت:

إنه «من عند الله وقد رزقنيه الله»... ولكنهم بتفكيرهم الوثني والمادي لم يصدِّقوا هذا، وأخذوا يتفرَّسون فيها فوجدوا كل نضارتها قد عادت إليها، ووجدوا آثار البلل على ثيابها.. فذهبوا يبحثون يمنياً ويساراً ومن ثم انطلقوا إلى قِربهمْ وأدواتهم فوجدوها لم تحلّ.. فهي هي كما تركوها..

ومضوا ينظر بعضهم إلى بعض ويقولون: إن القِرب كما هي، والماء الذي فيها لم يمس. ومقداره هو مقداره الذي يعرفونه ويذكرونه جيداً...

وأن هذه القِرب لفي مكان أمين.. والمرأة ضعيفة لا حول لها ولا قوة، ولا تستطيع حراكاً، وعند ذلك أيقنوا صِدقها فجاؤوها قائلين:

«نشهد أن ربك هو ربّنا... وأن الذي رزقك في هذا الموضع - بعد أن فعلنا بك ما فعلنا هو الذي شرع الإسلام».

وهو ربٌّ قادر على كل شيء.. أما أصنامنا فلا تملك الحركة أو النفع..

■ وحينذاك أسلموا عن بكرة أبيهم، وكسروا أصنامهم بأيديهم، وهاجروا جميعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاهرون بإسلامهم، ويشهدون أن محمداً عبد الله ورسوله، وعرفوا فضل أم شريك عليهم...

أفليست بثباتها وعمق إيمانها هي التي أرتْهم بفضل رحمة الله مظهراً من مظاهر قدرة الله ورحمته اللتين لا تحدهما الأسباب، ولا يوصد أمامهما أيّ باب..

ورضي الله عن الصحابية الجليلة الثابتة على الحق (أم شريك العامرية).

«٦»

أهل صفةً من النساء

إن تاريخ المرأة في حضارتنا تاريخ مظلوم مع أن المرأة كانت فاعلة وإيجابية ومتفوقة على كثير من الرجال ولها إسهاماتها في طلب العلم وفي الدعوة إلى الله وفي الجهاد في سبيل الله!!.

وقد ذكرت كتب السيرة أن هناك (أهل صفة) من الرجال، وفي المقابل لم ترد إلا إشارات عابرة تفيد أن هناك (أهل صفة) من النساء.

والحقّ أنه كانت هناك (صفّة للنساء): وهي عبارة عن سقيفة خاصة بالنساء في المسجد النبوي -أو لعلها في تلك الصفوف الخلفية المخصصة للنساء - وكانت تجتمع فيها مجموعة من النساء قد تخاللن وتآخَينَ وتعاهدن فيما بينهن على القيام ببعض أعمال البر المفيدة النافعة ومنها: الأنشطة التعليمية حيث طلبن من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخصص لهن يوماً لتعليمهن دينهن بعد أن غلبهن الرجال على ذلك، فاستجاب لهن صلى الله عليه وسلم، وجعل لهن يوماً على حدة (رواه البخاري).

وإضافة إلى هذا التعليم الجماعي فقد كان هناك تعليم فردي ندب إليه رسول الله بعض النساء ومن ذلك: حثه على تعليم المسلمين بعضهم بعضا كما طلب رسول الله من الشفاء بنت عبد الله تعليم حفصة رضي الله عنها!!.

بل إن النساء كن من مؤسسات الدولة الإسلامية لدرجة أن بيعة العقبة الثانية ضمت عدداً من النساء بايعن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما أن كل النساء اللائي كن يسلمن يقمن بالبيعة أيضاً.

وكذلك كان للنساء مندوبة تتحدث باسمهن يدل على ذلك قول أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إني رسول ورائي جماعة نساء المسلمين كلهن يقلن بقولي، وعلى مثل رأيي.

وقد استمرت هذه (الجمعية النسائية الخيرية) مدة تشغل مكانا خاصاً بها في المسجد حتى طلب عمر رضي الله عنه خروجهن من المسجد. تقول أم حبيبة (خولة بنت قيس): كنا نكون في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر رضي الله عنه، وصدراً من خلافة عمر رضي الله عنه في المسجد نسوة قد تخاللن، وربما غزلت بعضنا بعضاً فيه الخوص.. فأخرجنا منها عمر..

وهذه اللقطات تؤكد لنا مدى الفاعلية والإيجابية للمرأة المسلمة بناء حضارة الإسلام ودولته، وذلك في وقت كانت أوربا وأكثر بلاد العالم تنظر إلى المرأة على أنها نصف شيطان وأنها شر لا بد منها وأن مكانها البيت أو الوأد خشية العار.

إنسانية الإسلام

في السمو الأخلاقي

«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»

«١»

العدل.. في أسمى صوره

■ منذ مئة سنة واليهود يتعاملون مع المسلمين والعرب بكل مكرٍ وقسوة ووحشية عزَّ أن يكون لها مثيل في التاريخ الإنساني، وقد تضاءلت جرائم التَّتار والصليبيين إلى جرائمهم.. وَقَدْ دنَّس هؤلاء اليهود أيادي الإسلام وحضارته البيضاء عليهم، عندما كان محكوماً عليهم بالإبادة الجماعية والتعميد القهري لأبنائهم ومصادرة كل أموالهم في إسبانيا على عهد القوط، فجاء الإسلام ورحمهم من كل هذا وعاشوا في إسبانيا أكرم حياة، وتبوؤوا أرفع المناصب(!!) ولما طُرد المسلمون من إسبانيا شرّ طردة وتعرضوا لمحاكم التفتيش خانهم اليهود، لكن خيانتهم لم تنفعهم فعاملهم أبطال محاكم التفتيش بمثل ما عاملوا به المسلمين وطردوهم شرّ طردة..!!.

■ وبعد طرد أوروبا الجماعي لهم بعد سقوط إسبانيا سنة (١٤٩٢م) لم يجدوا ملجأً إلا بلاد الإسلام والشرق، فعاشوا أطيب حياة في ظل الحضارة الإسلامية أيام المماليك والعثمانيين بل وبدايات عصر الاستقلال.. لكن الغدر لم يفارقهم أبداً، فكانوا في كل ذلك يكيدون ويخططون لقطع الأيادي التي امتدت لإنقاذهم، وامتصاص دماء من أسكنوهم في بلادهم، لأنهم -كما وصفهم الكتاب المقدس- لا يعرفون الوفاء ولا الرحمة، بل هم كالأفاعي السامة، وكالجراثيم التي تأكل أفضل ما في الجسم وتقتله في الوقت نفسه!!.

■ ونحن نقدم موقفاً واحداً ضمن آلاف المواقف الدالة على عظمة حضارة الإسلام في العدل والمساواة والرحمة، حتى بهؤلاء اليهود الذين لم يعرف قاموسهم أبداً معاني الأخلاق والإنسانية والرحمة!!.

لقد أراد السلطان سليمان القانوني الذي بلغت القوة الإسلامية في عهده أوج عظمتها أن يبني مسجداً باسمه في (إسلامبول) المعروفة الآن باسم (اسطنبول).. وقد بحث رجال السلطان عن أفضل مكان يكون صالحاً لهذا المسجد العظيم، فاتفقوا جميعاً في نهاية بحوثهم على مكان معين فسيح جميل، لم تكن هناك أية مشكلة في البناء فيه إلا مشكلة صغيرة هي، أن يهودياً يملك كوخاً صغيراً بداخل هذا المكان، ولا بُدَّ من إزالته قبل المباشرة في البناء.

وبأمر من السلطان ذهب رجاله لشراء الكوخ من اليهودي عارضين عليه ثمناً مناسباً يستطيع أن يشتري به بيتاً أفضل من هذا الكوخ.. لكن اليهودي الماكر كان يعرف عدل السلطان، فرفض بيع الكوخ.. وعبثاً حاول رجال السلطان بأمر من السلطان.. أن يشتروا منه الكوخ بأضعاف هذا الثمن الذي عرضوه عليه سابقاً.. لكنه كان لئيماً فرفض بيع الكوخ تماماً.. وعندما عجز رجال السلطان عن التفاوض مع اليهودي أبلغوا السلطان بما انتهوا إليه، آملين أن يأخذوا الإذن بطرد اليهودي المعاند من مكانه وهدم الكوخ.. ولكن السلطان رفض تماماً هذا الاقتراح.. ثم فكّر وقرر في نفسه أمراً، هو أن يذهب هو بنفسه لمفاوضة اليهودي في بيع الكوخ.. وفوجئ الجميع وأدهشهم الأمر، ولكن هكذا فعل السلطان.. وذهب -فعلاً- سليمان القانوني بنفسه، ونزل عن

جواده، ودقَّ باب الكوخ على اليهوديّ.. وفتح اليهوديّ الباب، ففوجئ بالسلطان وحوله بعض رجاله، وأذْهله حضور السلطان، وطلب منه بيع الكوخ بكل تواضع وبأيّ ثمن... بل وقد عرض عليه السلطان أضعاف المبلغ الذي عرضه عليه رجاله سابقاً.. وسرعان ما وافق اليهوديّ على هذا العرض السّخي الذي قدمه له السلطان.. بنفسه..!!.

وهكذا بني جامع السليمانية -من أضخم المساجد في تركيا- والأهم من ذلك أنه مسجد بُني على التَّقْوى.. وَقدَّمه لنا -بهذا الموقف- صَفحة رائعة من صفحات (العدل) و(الكرم) و(الرحمة) مع من لا يعرفون كل هذه المعاني.. ومع من يتعاملون مع المسلمين في العالم كله الآن بكل غدر ووحشية.. ولله الأمر كله، والعاقبة للمتقين، مهما طغى الطاغون، وظلم الظالمون!!.

«٢»

الإخلاص وإنكار الذات

■ الإخلاص سرّ القبول والنجاح في كل عمل، وكل عمل مجرد من الإخلاص سرعان ما يذبل ويُفتضَح أمرُ صاحبه، ومهما كان ظاهر العمل طيِّباً إلا أنه مجرد من الإخلاص، فإنه يردّ على صاحبه، فلا يستفيد منه ديناً ولا آخرة.. وأعتقد أنهم عندما قالوا هذا المثل: (اتق شرّ من أحسنت إليه) كانوا يقصدون الذي أحسنت إليه وتنتظر منه المعاملة بالمثل، لكن الذين يبتغون بإحسانهم وجه الله وحده، ولا يطمعون في الناس، هؤلاء لا يأبهون -أصلاً- بموقف الناس منهم، حتى وإن أحزنهم غدر الغادرين.. لأن ما عند الله سيعوضهم خيراً أعظم من كل جزاء دنيوي!!.

■ وقد قدَّم لنا تاريخ الإخلاص والزهد فيما عند الناس صفحة رائعة من حضارتنا تحتاج إلى تتبّع وتأريخ...

ولا تخلو حياة عالم كبير ولا مجاهد عظيم ولا زاهد من الزهاد من صور كريمة تعكس إخلاصه وإنكاره لذاته وتجرده لله.. وقد بلغ بعضهم في ذلك مبلغاً عظيماً...

لدرجة أن الإمام السَّجاد (الذي لقب بالسجَّاد لكثرة سجوده) علي ابن الحسين الملقب بزين العابدين (رضي الله عنه) اكتشفوا بعد موته عشرات البيوت التي كان يحمل لها بنفسه الصدقات متنكراً في جوف

الليل، وأصحاب هذه البيوت لا يعرفون أن الذي يحمل لهم القوت بنفسه هو الإمام الكبير على بن الحسين بن علي.. سبط رسول الله عليه الصلاة والسلام...

■ وفي التاريخ كله، عبّر بلدان حضارة الإسلام الكثيرة تلمح في كل مدينه علَمَاً من الأعلام يعمل كثيراً من هذه الأعمال دون أن يشعر به أحد.. فهو لا يريد إلا (وجه الله) ولا يسعى لشهرة تحبط عمله، أو رياء قد يمنع قبول الطاعة..

ومن أطرف ما ورد في باب الإخلاص وإنكار الذات قصة وليّ من الأولياء زهد في الدنيا كلها، حتى في أن يعرف الناس أنه عالم فقيه من أكبر فقهاء عصره.. وكان اسم هذا الولي الأصلي (حامد آقصر إيلي) لكنه عرف بين أهل مدينة (بورصة- بتركيا) باسم (صمونجي بابا) لأنه كان يبيع نوعاً من الخبز يخبزه بنفسه ويمتاز بنظافته ولذّته يسمى خبز (الصمون)، وكان (حامد - صمونجي بابا) قد سافر في طلب العلم في الشام وتبريز وأردبيل بإيران، والتقى بالعالم الكبير علاء الدين الأردبيلي ولازمه وبقي في خدمته ينهل من علمه سنوات عديدة، وتعلّم منه التدرج في مسالك التقوى والزهد، ثم عاد ليستقرّ في مدينة (بورصة) في عهد السلطان بايزيد الأول خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، وفيها صنع لنفسه فُرْناً في بيته يخبز فيه، ويبيع الخبز، ويعيش على هذا، ويتفرغ بقية وقته للعبادة والعلم.. وما رغب قطّ أن تُعرَف حقيقة علمه أو ورعه أو زهده أو فضله...

■ وقد أتت الرياح بما لا تشتهي السفن.. فعندما أتمَّ السلطان (بايزيد الأول) بناء مَسْجده الجامع الكبير المعروف حتى اليوم باسمه - قرَّر افتتاح المسجد بخطبة الجمعة فيه أثناء حضوره... وعندما حان وقت الخطبة أشار السلطان إلى العالم الكبير (أمير سلطان) أن يلقي الخطبة، وكان (صمونجي بابا- بائع الخبز) حاضراً، وكان العالم (أمير سلطان) يعرف حقيقة علمه وفضله فاستحيا أن يلقي الخطبة أمامه.. ولهذا وقف أمام المنبر، ثم أشار إلى (صمونجي بابا) وقال للسلطان وللحاضرين: (ليس في هذا الجامع من هو أحق من هذا الرجل (صمونجي بابا - البائع للخبز) بإلقاء الخطبة في هذه المناسبة العظيمة.. وكما يقول المؤرخ والباحث التركي المعاصر (أورخان محمد علي)، فقد اندهش الحاضرون من هذا الكلام، وأحسَّ (صمونجي بابا) بحرج شديد، وشعر بأن أمره قد انكشف.

لكنه لم يملك إلا أن يقوم من مكانه مضطراً ويتجه إلى المنبر، والأنظار مصوَّبة إليه، وقبل أن يصعد المنبر مال على أذن العالم الكبير (أمير سلطان) وهمس في أذنه معاتباً: لقد كشفتني أمام الناس جميعاً.. ماذا فعلت يا أخي؟!..

وقد ألقى (صمونجي بابا) خطبته في تفسير سورة الفاتحة من سبعة وجوه فكان تفسيره رائعاً أخذ بمجامع القلوب..

لدرجة أن أحد العلماء الكبار الحاضرين قال: إن تفسيره الأول للفاتحة فهمه الجميع، والثاني فهمه البعض، والثالث فهمته القلة (أي الخاصة) والرابع إلى السابع كان فيضاً إلهياً فوق طاقة إدراك الجميع، لكأنه كان يتكلم من أنوار سماوية علوية!!.

وانتشر خبر (صمونجي بابا) في أرجاء العاصمة التركية آنذاك (بورصة)...

وبعد يومين رحل الوليّ الصالح عن المدينة، إلى مدينة أخرى يبيع فيها الخبز.. وينشر الخير بطريقته الخاصة.. بعيداً عن رائحة الشهرة والرياء.. رحمه الله..

■ وكم في حضارتنا من صور رائعة يرتفع فيها المخلصون المتواضعون إلى درجة ملائكية.. مع علمهم وفضلهم وقدرتهم على أن يكونوا في أرغد عيش وأرفع مكانة.. ما.

«٣»

أخلاقنا الحضارية.. فوق المصالح والأهواء

■ في البدء كانت الروح.. فالإنسان نفخةٌ من روح الله... وبغير الروح يصبح الإنسان مادة أو عقلاً مجرداً من معانيه الإنسانية والروحية والأخلاقية في هذا العالم.

فليس بالمادة أو العقل وحدهما تصنع الحضارات الصحيحة المتوازنة الملائمة لكل قوى الإنسان وطاقاته!!.

■ ويشير العلامة عبدالرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) إلى أن رقي الأمم لا يتحقق بتوافر القوة المادية أو رقي العقل (العلمي أو العملي) فحسب، بل الأهم من هذين الأمرين الضروريين (وجود فكرة أخلاقية) تكون صمام أمان للمجتمع».

■ ويوضح الفيلسوف (غوستاف لوبون) قيمة (المعيار الأخلاقي) فيقول: «إن الانقلاب يحدث عن حياة الأمم بالأخلاق وحدها، وعلى الأخلاق يؤسس مستقبل الأمة وحياتها الحاضرة، وحظُّ العقل والقلب عن بناء الأمة أو سقوطها قليل جداً، وعندما تذوى أخلاق الأمة تموت مع وجود العقل والقلب، اللذين ربما يكونان متقدِّمين في نواحٍ عملية كثيرة.. فعلى (الأخلاق) وحدها يقوم نظام الجماعة الإنسانية، وهي -أي الأخلاق- أساس الدين[١].

(١) انظر كتاب: السنن النفسية لتطور الأمم ترجمة عادل زعيتر بتصرف، فصل: الأخلاق.

■ وقد ساق (الدكتور لوبوث) عدداً من الأمثلة لبيان تأثير الأخلاق في قيام الدولة وسقوطها، على رأسها حال الأمة الرومانية التي سقطت، وهي أقوى من أسلافها من الناحية العقلية، إلا أنها كانت قد ضعفت من النواحي الأخلاقية.

■ وقد نسى (لو بوث) أن يقدم (النموذج الإسلامي) الذي قضى على الروم وفارس، ولم يكن له من سلاح في النصر إلا إيمانه ورسالته الأخلاقية مع قلة العدد والعدة!!.

أما حالته العقلية (أي التقدم المادي والغنى) فلم يكن يصل إلى مستوى الفرس والروم بالتأكيد بل أقل منهم بكثير!!.

■ ويوضح لنا أحد علماء الهند الأفاضل هو الأستاذ محمد تقيّ الأميني (الأستاذ السابق بجامعة عليكرة) الفرق بين الأخلاق التي يقصدها (غوستاف لوبون) وبين الأخلاق الإسلامية.. فالأخلاق القرآنية التي يريد الإسلام إحداثها في الأمة لا ينحصر أثرها عن نطاق تلك الأمة، بل هي أخلاق تعود فوائدها وتمتد آثارها إلى الإنسانية العامة محققة العدل والرحمة الشاملة لكل الناس، فالعدل فيها مطلق، والكرامة الإنسانية مطلقة، والرحمة كذلك موجهة لكل العاملين!!.

«٤»

تواضع القويّ وإنسانيته

■ في حضارتنا الإسلامية يقف الحق فوق القوّة، على العكس من منطق الحضارات المعادية للإسلام، فالقوَّة عندهم فوق الحق!!.

وفي حضارتنا الإسلامية المفترى عليها تقف الجوانب الإنسانية والأخلاقية فوق الجوانب القانونية، فالرحمة والأخلاق فوق العدل، وهما لا يلغيان العدل ولكنهما يجعلانه عدلاً إنسانياً رحيماً، وحتى في ذبح الحيوان يجب إحسان الذبح وتقدير المشاعر الحيوانية تقديراً إنسانياً.

■ والعفوُ لا يكون عفواً إلا عن قوَّة، والزهد لا يكون زهداً إلا عن غنى، والإنسانية لا تكون إلا مع الحق والعدل.. وقد قدَّمت حضارتُنا صوراً لم تستطع أبداً أن تقدمها الحضارات الأخرى، وعلى رأس هذه الصور ما قام به النبيّ محمد عليه الصلاة والسلام عندما دخل مكة المكرمة فاتحاً بعد أن ظلمه وطارده المشركون في مكة، ثم لاحقوه في المدينة المنورة التي هاجر إليها.. بعد هذه العشرين عاماً يقول عليه السلام لهم: (اذهبوا فأنتم الطلقاء لوجه الله تعالى).. وما سئل عليه السلام في رحمة ولا عفو ولا إحسان إلا بادر إليه، وقد تابعه صحابتُه في ذلك، فَقَدَّموا للحضارة الإنسانيّة النموذج الأعلى في الإنسانية والتواضع في لحظات المجّد والقُوَّة!!.

■ وإذا كانت الجوانب الإنسانية مطلوبة في مساحة الحياة كلها، إلا أن معانيها السامية تكون أكثر ألقاً وبروزاً من ساعات الشدّة والخلاف والحروب والصراع... وهذه الجوانب الإنسانية كما تكون مع الأعداء تكون كذلك مع من تحت يدك، ممن تقدر على إيذائهم بكلمة تخرج من فمك، وممن يجب عليهم أن يتواضعوا لك، لا أن تتواضع أنت لهم.. ومع ذلك يقع منك التواضع لهم وأنت الأقوى والآمر والناهي والقائد الكبير المنتصر العظيم.. ولا تتواضع فقط، بل تبالغ في التواضع أحياناً.. وهكذا كان صلاح الدين الأيوبي مع جنوده.. ومع الذين يعيشون معه...

ومما يرويه المؤرخ ابن شداد: أن صلاح الدين.. نزل يوماً على عادته، ومُدَّ الطعام بين يديه، ثم عزم على النهوض، فقيل له:

إنَّ وقت الصلاة قد قَرُب، فَعَاد إلى الجلوس، وقال: نُصَلِّي ونَنَام. ثم جلس يتحدث حديث مُتَضَجِّر، وقد أُخْلِيَ المكانُ إلا ممَّن لزم، فَتَقَدَّم إليه مملوك كبير محترم عنده، وَعَرَض عليه شكوى لبعض المجاهدين، فقال له: أنا الآن ضجران، أَخِّرْها ساعة، فلم يَفْعَل، وَقَدَّم الشكوى إلى قريب من وجهه الكريم بيده (!!) وَفَتَحَها بحيث يقرأها، فوقف صلاح الدين الاسم المكتوب في رأسها فَعَرفَه، فقال: رجل مستحقّ، فقال المملوك: إِذَنْ يوقِّع مولاي له، فقال صلاح الدين: ليست الدواة حاضرةً الآن. (وكان -رحمه الله- جالساً في باب الخيمة، ولا يستطيع أحد الدخول إليها، والدواةُ في صدرها والخيمة كبيرة).

فقال له المملوك: هذه الدواة في صدر الخيمة. (وليس لهذا معنى إلا أمر المملوك لصلاح الدين بإحضار الدواة لا غير) فالْتَفَتَ صلاح الدين-رحمه الله- فَرأىَ الدُّواة، فقال: والله لَقَدَ صَدَق. ثم اعتمد على

يده اليُسْرى، وَمَدَّ يَدَهُ اليُمنى فَأحْضَرهَا، ووقّع له على الشكوى بالتوقيع المناسب: (فانْظُر إلى هذا التواضع والحلم من صلاح الدين في مواجهة الأسلوب الخشن للملوك) لدرجة جعلت المؤرخ ابن شداد يعلق على هذه الواقعة بقوله: (لقد قال الله تعالى في حقّ نبيّه صلى الله عليه وسلم:

«وإنّك لعلى خلق عظيم» وما أرى مولاي صلاح الدين إلا قد شاركه في هذا الخلق) لكن صلاح الدين يعلق عليها بقوله: (ماضرَّنَا شيء، قَضَيْنا حاجته، وحصل الثواب» (!!).

ويعلق ابن شداد على هذا الموقف قائلاً: «لو وَقَعَتْ هذه الواقِعةُ لآحاد الناس، وأفرادهم لقَامَ وقَعَدَ، ومَن الذي يقْدر أن يخاطب سلطانا، هو تحت حكمه بمثل ذلك؟ وهذا غاية الإحسان والحلم، والله لا يضيع أجر المحسنين».

ويقول ابن شداد أيضاً: «ولقد كانت عباءته تداس عند التزاحم عليه، لعرض الطلبات والشكاوى، وهو لا يتأثَّر لذلك.

ولقد نفرت يوماً بغْلتي (أي بغلة ابن شداد) من الجمال، وأنا راكب في خدمته، فَزَحَمَتُ وركه حتى آلمتهُ، وهو يبْتسم -رحمه الله تعالى-.!!

ولقد دخلت بين يديه في يوم ريحٍ مطير إلى القدس الشريف، وهو كثير الوحل، فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أتلفت جميع ما كان عليه، وهو يبتسم، وأردت التأخر عنه بسبب ذلك، فما تركني.

ولقد كان يسمع من المستغيثين والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع، ويلقى ذلك بالبِشْر والقبول».

■ لقد قدمت حضارتنا أسمى صفحات السموّ الإنساني، والتواضع والحلم والكرم والأخلاقيات النبيلة عامة..

وهي لم تقدمها كلاماً أو شعارات تدافع بها عن نفسها وعن أبنائها في ساعات الضعف والتشرذم.. وإنما قدمتها في ساعات القوة والمجد.. يوم كانت -بحق- خير أمة أخرجت للناس!!.

ولسوف تعود بإذن الله!!.

«٥»

التسامح والزهد في الانتقام

الحروب في الإسلام استثناء وشذوذ عن القاعدة، ولهذا لابد أن تخضع لأكثر الآداب، وتكون في أضيق الحدود، ومن المعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قبل صلح الحديبية على ما فيه من شروط مجحفة تلافياً للحرب، كما أنه دخل مكة فاتحاً بعفو شامل عن الذين سعوا لقتله وشنوا عليه الحروب وعذبوا أصحابه أشد التعذيب مدة ثلاثة عشر عاماً في مكة، ثم في المدينة المنورة.

وتدلنا سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم على عظيم عفوه وتسامحه وزهده في الانتقام، سواء في السلم أو الحرب. وكانت هذه الأخلاق النبوية العظيمة روحاً انسابت في قلوب أتباعه ونفوسهم، في حربهم وسلمهم على السواء، فمع أن الخلافات أو الحروب مظنة اللاإنسانية والسلوكيات المدمرة اللاأخلاقية، إلا أن سمو الإسلام المتجسد في سلوكيات الرسول وصحابته قد قدم للبشرية نموذجاً جديداً يفتح أمام الإنسانية آفاقاً رائعة للتفاهم الإنساني والسمو الأخلاقي!!.

وقد تجلّت الروح الإنسانية في الإسلام في الجندي والمقاتل المسلم، متمثلة في التزامه بشرطين:

أولهما: التزامه بالتحصن بالنزعة الإنسانية الأخلاقية المشبعة بالنية الحسنة التي تجعل جهاده للرغبة في الدفاع عن الدين والحق، وليس للبحث عن الغنائم، أو لمجرد القتل والانتقام. وثانيهما: التزامه بأن

يطبق أثناء القتال صيغتي الجهاد اللتين يأمر بهما الدين: (الجهاد الأصغر) الذي يجعله على استعداد للتضحية بنفسه في سبيل القضية والحقيقة، و(الجهاد الأكبر) الباطني الذي يلزمه بكظم غيظه وكبت غرائزه ومقاتلة عدوه بعدل.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فهذه الآية تحدد وتختصر التشريع الإسلامي الخاص بالقتال برمته. فليس بوسع قائد الجيش ولا الجندي على حدته أن يتجاهلا القواعد الإنسانية التي فرضها التنزيل. مثل تحديد العدو، وتعيين الشكليات التي تسبق بدء المعركة، وتقرير المعاملة الواجب اتباعها نحو المغلوبين، مقاتلين كانوا أو مدنيين، وتنظيم قسمة غنائم الحرب.

وكذلك حظر أعمال التعذيب التي لا طائل تحتها، وتحريم الإفراط والتجاوز، وحماية الأعداء العزل وغير المحاربين، والمحافظة على الأموال والممتلكات.

وهكذا- سلماً أو حرباً، وفاقاً أو اتفاقاً، يضع الإسلام قوانين عادلة رحيمة، مع الأعداء، بدون تدمير أو ظلم أو إبادة أو انتقام.. فالقرآن يهدي للتي هي أقوم.. والرسول ابتعث رحمة للعالم كله مسلمة وغير مسلمة.

أما أعداؤنا في القديم والحديث.. في حروبهم الصليبية القديمة، وفي استعبادهم لنا باسم الاستعمار الحديث خلال القرون الثلاثة الأخيرة.. وأخيراً تحت شعار العولمة.. فليس عندهم لنا إلا مخططات التدمير ومشروعات التجويع والافقار!!.

«٦»

الحرية الإنسانية بين حضارتنا وحضارتهم

كان الرق ظاهرة عالمية فرضت. نفسها على واقع المسلمين يوم ظهر الإسلام في الأرض... وما كان ممكناً عقلياً أو إنسانياً- أن يترك الإسلام أبناءه يسترقون في الحروب، ولا يعامل الأعداء بالمثل...

لكن الإسلام -مع ذلك- وضع مشروعاً هو أفضل المشروعات للقضاء على ظاهرة الرق والعبودية، وبدأ فوراً بالارتفاع بالعبيد في الحقوق الإنسانية: الكرامة الآدمية- إلى مستوى الأحرار لدرجة أن هؤلاء العبيد ظلوا يصعدون بجهادهم وتفوقهم الحربي إلى أن أصبحوا رؤساء دول تنسب إليهم، كدولة المماليك في الشام ومصر ودولة المماليك في الهند..

فهل وقع مثل هذا في صفحة الحضارة الأورو أمركية؟

أجل: لقد كان الإسلام أسبق وأزكى من كل النظم والحضارات حيث قرَّر حق المساواة الإنسانية بين البشر وبين الأحرار والعبيد. إن الناس في الإسلام سواسية ولا تفاضل بينهم.. فكلهم لآدم وآدم من تراب، ولا فرق في ذلك بين الرجل والمرأة.

والغنى والفقير والعبد والحرّ إلا بالعمل الصالح والكفاءات الممتازة وبما يقدمه كل فرد لربه، ولإخوانه ولوطنه.

لقد قضى الإسلام على النزعات القبلية والعصبية الجاهلية، فلا تفرقة بين الطبقات، ولا بين العبيد والأحرار... فكان الرسول صلى الله صلى الله عليه وسلم يقرب إليه كثيراً من العبيد، ويقدمهم على بعض الصحابة الأحرار، كما كان يرسلهم قادة على الجيوش التي تضم بين صفوفهم خيرة الصحابة دون تفرقة على أساس الحسب أو النسب.

يقول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع: «أيها الناس إن ربكم واحد وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى.. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.. فليبلغ الشاهد منكم الغائب».

ويروى أن أبا ذر الغفاري تناقش مرة في حضرة النبي مع عبد زنجي فاحتد أبو ذر على العبد وقال له: يا ابن السوداء، فغضب الرسول-عليه الصلاة والسلام- وقال: «طَفَّ الصاع، طَفَّ الصاع (أي قد زاد الأمر عن حدّه) ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح» فحزن أبو ذر ووضع خده على الأرض، وقال للعبد: «قم فطأ على خدي». فليس في الإسلام إنسان أكرم من آخر بفضل حسبه ونسبه، بل الكل سواسية، ولا تفاضل إلا بالعمل الصالح فقط.

وهذا من الناحية الإنسانية البحتة..

أما أمام قانون الإسلام - فالمساواة قائمة بين الأحرار والعبيد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ (البقرة: ١٧٨).

وقال أيضاً: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾(المائدة: ٤٥).

وإذا قارنا هذا بما فعله الأوربيون والأمريكان مع الأفارقة الأحرار الذين اختطفوا من إفريقيا السوداء، وكيف عوملوا على أنهم عبيد- فور اختطافهم- ثم تعرضوا للجوع والقسوة، وألقى كثير منهم في البحر وهم أحياء، نتيجة الأمراض وصور الضعف التي لحقت هم..

ولو قارنّا قيم الإسلام هذه-أيضاً- بما فعلته الطوائف الزاحفة على أمريكا من أوربا مع الهنود الحمر (وهم أصل أمريكا)، وكيف قتلت منهم نحو عشرين مليوناً... كما قتلت من الأفارقة المخطوفين نحو عشرة ملايين..

لو قمنا بهذه المقارنة، وتذكرنا صور الإبادة الأخرى.

لعرفنا قيمة ديننا الإسلامي وحضارتنا الإسلامية.. دين التسامح وحضارة الرحمة لكل العالمين، وصدق الله في كتابه الكريم:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٠).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء ١٠٧).

«٧»

دين إنساني يأمر بالترويح وحب الحياة

■ لم تعرف حضارتنا المنبثقة من ديننا التعصب والتَّزمت وبغض الحياة، وكل ما ورد في هذا السبيل فإنما يُقصد به تحقيق الوسطية حتى لا تصبح الحياة معبوداً من دون الله وغاية تحول دون التفكير في الموت والآخرة.

وإنما قام منهج الإسلام وحضارته على تعمير الحياة وتحقيق التوازن بين الجوانب النفسية والجسدية والروحية والعقلية (فأعْطِ كلَّ ذي حق حقه) كما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكانت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وحياته وحياة أصحابه هي النموذج التطبيقي لهذا المنهج، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ساعةً وساعة» ويقول صلى الله عليه وسلم: «الهوا والعبوا فإنني أكره أن أرى في دينكم غلْظة» (رواه البيهقي).

وقد علَّق ابن حجر الهيثمي على ذلك بقوله: «ذلك دليل لطلب ترويح النفس إذا سئمت، وجلائها إذا صدئت باللهو واللعب المباح.

وقول علي رضي الله عنه: «روحوا عن القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلب إذا كره عمى» ولابن عباس تفسير عملي لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن خلال ممارسته التعليم اكتشف هذه الظاهرة النفسية فقال في وصفها وعلاجها: «أحمضوا -أي ميلوا إلى المفاكهة والأخذ في مُلَح الكلام والخطابات- وهاتوا من أشعاركم فإن النفس تملّ كما تملّ الأبدان».

■ وهذه الظاهرة النفسية السلوكية، وإن كانت ظاهرةً بشرية فطر الله الناس عليها، ولكن مصادرنا الشرعية من الكتاب والسنة قد وصفتها وأصّلتها وقعدت لها القواعد، وهذه العملية لم يؤصل لها الغربيون إلا في نهاية القرن التاسع عشر مع ظهور العلوم النفسية والاجتماعية، ووضعت نظريات اللعب وأهميتها في تعديل سلوك الإنسان ولكن بحسب تصورهم المادي الوضعي..



■ وكانت هناك بعض الألعاب الجادة مثل: الرماية، والسباحة، واللعب بالحراب، والتسابق في الركض، والمصارعة، واللعب بالكرة والصولجان والفروسية وكانت هناك المسابقات الفكرية والتناشد بالشعر والإنشاد المغنى في بعض المناسبات؛ لأن ديننا فيه فسحة. والترويح جزءٌ من بناء الإسلام الشامل لجميع جوانب الحياة؛ ليكون بناء الإنسان سوياً متكاملاً يُلبي احتياجاته الروحية والنفسية والفكرية والجسدية من خلال هذا المنهج الرباني. فهل رأيتم ديناً وحضارة على هذا المستوى من تقدير الحياة والإنسان؟!!.

«٨»

دور الضيافة مظهر للطبيعة الإنسانية الإسلامية

■ من خصائص حضارتنا الإسلامية اهتمامها بالتكافل الاجتماعي الإنساني للمسلمين وغير المسلمين مادياً ومعنوياً . فليس بالمادة وحدها يقوم الإنسان.. وعندما أقام الرسول عليه السلام دولة الإسلام في المدينة أقام في حمى المسجد النبوي داراً للضيافة للرجال وأخرى للنساء، وكانت تُعرف بالصفّة، وهي خيام تُضرب في المسجد لاستقبال ضيوف الدولة، وبخاصة الوفود التي كانت تقدم لإعلان إسلامها، أو محاورة النبي صلى الله عليه وسلم حول قضايا الإسلام ونظمه، والحقوق والواجبات التي تتعلق بمن يعلن إسلامه. وهذه الخيام الخاصة بالضيافة غير (الصفة) الخاصة بأهل الصفة الثابتين.

■ وكانت هذه الخيام تضرب عندما تكون الصفة -وهي دار الضيافة الإنسانية الثابتة في المسجد- مشغولة بأهل الصفة نزلائها الدائمين، أو بضيوف آخرين حلّوا فيها.

■ وهذه الخيام (الصفّة) تُمثل -على بساطتها- صورة عملية للروح الإسلامية في التكافل الاجتماعي المادي والمعنوي.. فهي دار ضيافة، وهي في داخل المسجد أو في حماه.. وهي مقدمة تمهيدية لنوع من المؤسسات الاجتماعية (الإنسانية) تفردت به حضارتنا وسبقت إليه.

■ وهذا النوع من المؤسسات الاجتماعية، منها ما كان ينشأ تبرعاً من الأفراد ابتداءً، أو أن يتبرع بعض المحسنين ببيوت تجعل دوراً للضيافة على سبيل الدوام والاستمرار، إسهاماً منهم في بناء مؤسسات الدولة الإسلامية.

وكان هناك نوع آخر من دور الضيافة وهو مؤقت بحسب الظروف، وذلك عندما يكون هناك زخم من الضيوف، كما حصل في عام الوفود القادمين إلى المدينة حيث امتلأت الأماكن الدائمة، فاستخدمت دور بعض الصحابة من الرجال والنساء الواسعة مكاناً لاستقبال الضيوف.. كما يقول الباحث العراقي الدكتور ليث جاسم في رصده لظاهرة المؤسسات الاجتماعية في حضارتنا الإسلامية.. وكما يضيف الباحث أيضاً قوله: لقد كانت القاعدة في الظروف الطارئة: أنه إذا جاع المسلمون فلا مال لأحد. أي أن الدولة لها حقّ الأخذ من أموال الأغنياء بالمعروف وصرفها في أوجهها الشرعية من خلال رقابة الأمة، ومن خلال المسؤولية التضامنية بين الدولة والأمة.

■ ولذلك عندما وردت وفود القبائل من أنجاد الجزيرة كافة، وكانت الدولة في بدايات بنائها المؤسس، تجلت لنا صورة عملية ناصعة للتضامن بين الأمة والدولة تعكس لنا ذلك، فنجد أن النبي صلى الله عليه وسلم (وهو رئيس الدولة) كان يُنزل ضيوف الدولة في (بيوت الصحابة) ممن تتسع داره لذلك، أو لصلة رحم وقرابة بين الوفد وصاحب البيت، أو لغرض دعوى أو لغير ذلك.

«٩»

أصول تاريخية لموائد الرحمن في رمضان

■ لا نستطيع أن ننكر أن الدولة الطولونية التي أسسها أحمد بن طولون، في مصر، وامتدّ بها إلى حدود الشام، مستغلاً ضعف الخلافة العباسية في مستهل عصرها العبّاس الثاني، الذي يبدأ مسيرته مع منتصف القرن الثالث الهجري تقريباً... (٣٣٤هـ) ويستمرّ حتى يسيطر البويهيون ثم السلاجقة على خلافة بني العباس... لا نستطيع أن ننكر أن هذه الدولة كانت حركة انفصالية تحمل طابع الطموح الشخصي، من ذلك الوالي السابق للعباسين (أحمد بن طولون) الذي استطاع الانفراد بالحكم الوراثي، والاستقلال، مكتفياً في علاقته بالخلافة العباسية على الهدايا والدعاء على المنابر للخليفة، والتظاهر بالطاعة، بينما هو مستقل استقلالاً كبيراً..

وكتعويض عن هذا السلوك حاول ابن طولون -ونجح كثيراً- في تدعيم كيان استقلاله وامتلاك أسباب القوة، وإرضاء الناس في داخل البلاد المصرية ثم الشامية، وبناء قوة عسكرية بحرية وبرّية ليبرّر أمام دولة الخلافة وجوده واستقلاله، ويظهر أهميته ونجاحه في القيادة، ويضمن التأييد الشعبي الداخلي، والإسلامي العام.. والحق أن ابن طولون ودولته قد نجحت في ذلك إلى حدٍّ كبير..!!

■ وفي لمحة من لمحات النور، وكقيمة أخلاقية من كتاب الأخلاق الرائع الذي يسجل أروع الصفحات في حضارتنا، يلتقط أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومي هذه اللقطة التي نوافقه عليها، لكنها لا تنتقص تقويمنا التاريخي الموضوعي الشمولي لشخصية ابن طولون مؤسس إحدى الدول الانفصالية (المستقلة)!!.



■ كان أحمد بن طولون رجل خير، يجمع إلى الحزم والبطولة صفاء النفس ورقة الفؤاد، وإخلاص الضمير، وقد نظر إلى شهر رمضان نظرةً عميقة مخلصة، فرآه حقلاً خصيباً لاستثمار الفضائل وإنماء المكارم، فهو في لبابه مظهر التعاون الإنساني بين الناس، ومجال البر والخير والتراحم والتوادّ، فليس الحرمان به عن الطعام هدفاً مقصوداً لذاته، ولكنه وسيلة قوية إلى تضامن النفوس، وتحابِّ القلوب، وإذْ ذاك أمر ابن طولون بدعوة الأغنياء والحكام من مختلف الأقاليم إلى منزله من أول يوم من رمضان، ثم قَدَّم إليهم موائد الإفطار حافلة آهلة، وجمع إليه حشداً من الفقراء والمستورين!! وما فرغ المفطرون من طعامهم حتى وقف ابن طولون وأعلن أنه دعا الأمراء والحكام لينظروا إلى ما يجب عليهم من السخاء طيلة أيام الشهر، فهم مسؤولون أمامه عن إطعام الفقير وتعهد المسكين، ثم أصدر بذلك قراراً وزَّعه على البلاد المتفرقة في القطر الواسع، وتهدد من لا يمتثل أمره بأشد العقاب والنكال فصار رمضان لعهده من أكرم صورة وأنبلها، وأصبح على يده مثابة خير ومورد إحسان، حتى إن بعض الحكام من الأقاليم كان يبعث أعوانه إلى بيوت

الفقراء ليحملوهم بالقوة إلى موائده، ثم يبوئوا بعد الإفطار وقد حملوا في أيديهم ما يطعم الأبناء والنساء، وقد مرَّ أول يوم من أيام رمضان بعمال البناء من مسجده، فرآهم يشتغلون حتى يؤذِّن المغرب، فتألم لذلك وقال: متى يتمكن هؤلا الضعفاء من شراء الطعام لأسرهم وإعداده؟ ثم أمر بصرفهم جميعاً حين يؤذن العصر، فكانت سنَّة جديدة يحتذيها من حكم البلاد من بعده، وسطرت له مع غيرها بأحرف من نور، فجزاه الله، وجزى أستاذنا الدكتور الأديب محمد رجب البيومي- خير الجزاء..!!.

-لكن الأمر- مع كل ذلك- يحتاج إلى مزيد إضافة وتوضيح..

■ فإن هذه المواقف الرمضانية الكريمة من (أحمد بن طولون)- وإنْ بقيت سنَّة حميدة من بعده بأشكال مختلفة... قد مرَّت عليها عهود ذبول، وعهود مبالغات يصل بها إلى حدّ الابتداع المنبوذ، كما كان في العهد الفاطمي.. في بعض فتراته الأولى على الأقل، قبل أن تميل كفته إلى الهبوط..

-لكننا -مع ذلك- نعتقد أن ما فعله ابن طولون، كان أصلاً لما يسمّى الآن (بموائد الرحمن في رمضان).. كما أنه يعدّ تطبيقاً عملياً لمعنى من معاني رمضان المقصودة من الشارع الحكيم، وهي التكافل الاجتماعي العام.. ولاسيما في رمضان شهر تجويع الغني ليشعر بمشاعر الفقير، والأخذ بيد الفقير -ولاسيما في العيد- ليقْترب من أخيه الغنيّ..

وهو في الوقت نفسه يقدم صورة إسلامية كريمة لرعاية المسلمين (لابن السبيل).. الذي يمثل باباً من أبواب الزكاة كان المسلمون ينسونه.. بعد أن اختفت (هجرة الضيوف) واختفى (دوّار العمدة) واختفت دور العوائل الكريمة المسبلة لابن السبيل وغيره.

لقد حفلت حضارتنا بصور كريمة عملية تحقق الكافل الاجتماعي، وقد كانت تمارس حبّاً وعبادة.. وقد قاوم بها مجتمعنا الإسلامي المذاهب المادية والإلحادية القائمة على الصراع الطبقي.. لأن حضارتنا حضارة الأخلاق والحبّ والترحم والتكافل بين الجميع.

«١٠»

الثقة في الله في وقت المحن

■ في ساعات الشدائد تتكشف معادن الرجال...

ففي سنة (١٩٣٠م) كانت الحكومة الفرنسية الحاكمة للجزائر تحتفل بمرور قرن على احتلال الجزائر، ويقول مندوبها: إن الإسلام (ومحمداً) قد ودَّعا الجزائر إلى الأبد!!.

لقد أثار هذا التصريح كل الجزائريين، وربما بكى الكثير منهم، لكن عالماً فاضلاً رفض أن يعلن انهزاميته، وقرر أن يقوم بعمل حضاري إيجابي هادئ لعودة الجزائر إلى الإسلام، وليحرِّك همة الأمة، وليبعث فيها الأمل والانتماء إلى إسلامها وعروبتها..!!.

■ ولد الإمام ابن باديس (الشيخ الرئيس) سنة ١٨٨٩م في مدينة قسنطينة- أكبر مدن الشرق الجزائري، وأبدع مدن الجزائر على الإطلاق من حيث الموقع الطبيعي، وأشهرها من حيث احتضانها القديم للثقافة الإسلامية وإنجابها لكثير من قادة الفكر الإسلامي في الجزائر، وكذلك كثرة الآثار الإسلامية بها.

■ لقد كانت قسنطينة- طيلة عهد الاستعمار الفرنسي بالذات- طليعة مدن الجزائر كفاحاً في سبيل الثقافة الإسلامية والعربية..

وفي قسنطينة هذه نشأ الشيخ عبد الحميد بن باديس، وترعرع، وتلقى علومه، ثم تخرَّج من الزيتونة عام ١٩١٢م (أعادها الله لمجدها الإسلامي) ولم يلبث أن قام بالحجّ إلى بيت الله الحرام شأنه شأن الأمير عبد القادر- حيث استغل هذه الرحلة الدينية فطاف بالمشرق والمغرب، وأتيح له أن يعرف من أمراض المسلمين الشيء الكبير، فعاد إلى الجزائر عازماً على الإصلاح وفق منهج إسلامي تكونت أبعاده في ذهنه من مجموعةٍ من المؤثرات المهمشة، صدر بعضها من الواقع، وصدر بعضها عن الثقافة التي تشبع بها الشيخ، وصدر بعضها عن الروح الإسلامية الجديدة التي أشاعها في سماء العالم الإسلامي الإمام محمد بن عبد الوهاب، والسيد جمال الدين الأفغاني، وتلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده، خاصةً وأن الشيخ محمد عبده قد زار الجزائر سنة ١٩٠٣م وأصبح له تأثير كبير في نفوس المثقفين والوطنيين الجزائريين، على السواء.

■ وعلى امتداد ما يزيد على ربع قرن من الزمان من حياة الشيخ التي لا تزيد عن واحد وخمسين عاماً كان الشيخ ابن بادريس- رحمه الله- يقضي بياض نهاره ومعظم ليله في (الجامع الأخضر) أو (سيدي قهوش) أو (سيدي بومعزة) أو (مدرسة التربية والتعليم) بقسنطينة يُعلِّم ويحاضر ويفسِّر القرآن ويغرس القيم الإسلامية بكل الطرق المستوحاة من منهج القرآن في التربية.. لقد آمن الشيخ بشيء عظيم.. لقد آمن بأن مستقبل الجزائر الإسلامي يتوقف على تكوين قيادات شبابية تنصهر في بوتقة الإسلام، ويتاح لها أن تتّصل بالإسلام من خلال منبعه الثَّر الصافي (القرآن الكريم)، ولم يقف الشيخ ابن باديس عند حدود المحاضرات والدروس في قسنطينة، وإنما كان دائم التجوال والانخراط في كل التجمعات التي يستطيع من خلالها أن يغرس القيم

التي يؤمن بها.. وتحقيقاً لأكبر أرضية يمكن أن تصل إليها هذه القيم فقد شجَّع الشيخ الصحافة العربية والإسلامية التي كانت تجد كل عنت من السياسة الفرنسية وعملائها.. ومن هنا فقد قام الشيخ نفسه بإصدار مجلة (الشهاب) وجريدة (التقدم) كما ساعد في تحرير جريدة صديقه الشيخ البشير الإبراهيمي (البصائر) ومن مجلات (السنَّة) و(الشريعة)، و(الصراط)، وجريدة (المرصاد).. وغير ذلك من المجلات والجرائد التي تسير مع طريق الشيخ وطريق جمعية العلماء المسلمين.

■ لقد كان الشيخ الرئيس يؤمن بتكوين (الفرد) إيماناً مطلقاًن ويرى أن (الفرد) أساس المجتمع الصالح، ومن هنا فقد عكف على الدروس والمحاضرات وعمل على الاتصال المباشر بتلامذته، وتكوين علاقات فردية يستشف من خلالها روح الفرد ويتمكن من التأثير فيه.

■ وقد قَدَّم دروساً قرآنية انتهت به إلى تقديم تفسير كامل للقرآن احتفلت الجزائر كلها بيوم الانتهاء منه.... ومن خلال التفسير قام بتربية الأمة، وبثّ روح العمل والإخلاص، والمقاومة للاحتلال الأجنبي (عدو العروبة والإسلام)...

■ وقد قدَّم الشيخ ابن باديس (باعث النهضة الإسلامية في الجزائر) درساً عملياً في رفض اليأس مهما كان جبروت أعداء الله، فالله أكبر من كل ا لظالمين، ونحن- بجهودنا المخلصة ووسائلنا المحدودة، واللجوء إلى فقه كتاب الله في تربية الأمة- نستطيع أن ننقذ الأمة من الظالمين في كل ساعات الشدائد... فالله أكبر من كل قوى الأرض، وهو غالب على أمره، وعليه- وحده فليتوكل المتوكلون، بعد الأخذ بالأسباب، والثقة المطلقة بربِّ الأسباب الذي يقول للشيء كن فيكون!!.

«١١»

الصبرْ أمام اختبارات الله

■ كان عروة بن الزبير (شقيق عبد الله بن الزبير) إماماً جليلاً زاهداً في مناصب الدنيا وجاهها، حريصاً على الفقه في دين الله، وتعليم الناس، والإحسان إلى الفقراء... وكان مشهوراً باستغراقه في الصلاة استغراقاً يخرجه عن الدنيا فكأنه ليس من أهلها، وكان آيةً في الصبر والتقوى والرضا بقضاء الله وقدره..

■ وقد اعتكف في حلقات المسجد النبوي بالمدينة والمسجد الحرام بمكة أيام الحج ليدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة مع نفرٍ من ذوي العلم بطيبة كانوا حملة المشاعل في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فضربوا في ميادين النظر بأوفر السهام، وقد عرفوا في تاريخ الفقه الإسلامي بفقهاء المدينة السبعة، وحسْبك أن يكون منهم: سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وعبيد الله بن عتبة ابن مسعود، وسليمان بن يسار، وسالم بن عبد الله بن عمر، وخارجة بن زيد بن ثابت، وعروة بن الزبير. رضي الله عن الجميع.

■ وقد عرف خلفاء بني أمية إخلاص عروة وزهده وابتعاده عن السياسة، وبالتالي فلم يأخذوه بخلاف أخيه عبد الله معهم، وعاملوه أحسن معاملة، وكانوا يستقبلونه أحسن استقبال، ويقبلون نصحه لهم، بل يستشيرونه في بعض الأمور..!!.

■ وقد مرض عروة مرضاً أوجب قطع أحد قدميه، فما جزع ولا وهن لما أصابه في سبيل الله، بل إنه عندما علم بالأمر تقبَّله برضاً، دون أن يظهر منه -حتى في وقت المفاجأة بالخبر- أيُّ تغيّر في صوته أو في وجهه أو على لسانه، بل بدا في غاية الرضا بقضاء الله وقدره..

■ ولما دُعِي الجزار ليقطع قدمه قال له: نَسْقيك الخمر حتى لا تجد لها ألماً. فقال: لا أستعين بحرام الله على ما أرجو من عافيته.. قالوا: فنسقيك المرقد (نوع من المهدئات) قال: ما أحب أن أسلب عضواً من أعضائي وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه.

قال: ودخل عليه قوم أنكرهم، فقال: ما هؤلاء! قالوا: يمسكونك، فإنَّ الألم ربما عَزَّ معه الصبر، قال: أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسي... فقطعت كعبه بالسكين، حتى إذا بلغ العظم وضع عليها المنشار فقطعت وهو يهلِّل ويكبّر، ثم إنه أُغلي له الزيت من مفارق الحديد، فحسم به، فغشى عليه، وأفاق وهو يمسح العرق عن وجهه، ولمّا رأى القدَم بأيديهم دعا بها، فَقَلَّبها في يده ثم قال: أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أني ما مشيتُ بكِ إلى حرام، أو قال: إلى معصية قط...!!.

وكان هذا هو كل ما صدر منه في هذا الموقف العصيب!!.

■ وكان من قدر الله وحكمته ألا يقف الأمر بعروة عند هذا الحدّ، بل شاءت حكمة الله أن تظهر عظمة هذا الفقيه الجليل وعميق إيمانه، وقوة جلده وتحمله، وضربه المثل في الصبر والاحتساب، ففي هذه الظروف نفسها تشاء إرادة الله أن يقع أمر محزن آخر يؤدي إلى كارثة

أخرى.. فقد دخل ولده (محمد) اصطبل الخيول من دار الخلافة لينهض بفرس له، فصادف خيلاً هائجاً يعترضه في عَدوٍ مجنون سرعان ما ألقاه على وجهه، فأسلم الروح، والأب الحزين لم يهدأ بعد من ألم القطع ليصدم بنعي ولده الحبيب..؟.

ولم يملك غير الدموع، فالاستغفار والاسترجاع.. وقد أحضر له الوليد بن عبد الملك من يواسيه من أرباب النوائب، فاستمع من إصغاء، ثم رفع يديه إلى السماء ليقول لله في ضراعة: «اللهم لئن أخَذْتَ لقد أبْقيت، ولئن ابتَليتَ لطالما عافيتَ.. فلك الحمد في الأولى والآخرة»!!

■ ولم يترك وِرْده إلا ليلةً واحدة، ثم استأنفه من الليلة المقبلة؛ إذْ كان يصلِّي الليل برُبع القرآن، ومنعه هيجان الألم أن يقرأ بعد القطع...

ومن الذي يطيقه؟.. لكن ذلك كان -كما ذكرنا- لليلة واحدة، فمن يستطيع أن يفْعل هذا، وأن يصل إلى هذه الدرجة من اليقين والإيمان!!.

وقد واساه كثيرون، وقدَّموا له أفضل المواعظ، وكان يستمع إليهم، ويقبل مواعظهم مع أنه أكثر علماً منهم، وأقوى إيماناً... لكنه أدب الإسلام الذي يأمر بالتواضع وخفض الجناح، وكان من أحسن ما سجله الرواة من ذلك ما يُنسب إلى إبراهيم بن محمد بن طلحة حين قال له من؟؟: «والله يا عروة ما بك حاجةٌ إلى المشي، ولا أرب في السعي، وقد تَقَدَّمك عضوٌ من أعضائك وابن من أبنائك إلى الجنّة، والكلّ يتبع البعض إن شاء الله تعالى.. وقد أبْقَى الله لنا من علمك ورأيك ما كنَّا إليه فقراء، وعن غيره أغنياء، والله ولي ثوابك، والضمين بحسابك».

فكان لهذه الكلمات الطيبات وأمثالها وقعها الطيب على عروة بن الزبير.. الصحابي الجليل.. إمام الصابرين المحتسبين في حضارتنا الإسلامية، بعد خاتم المرسلين وإمام المتقين عليه الصلاة والسلام!!.

«١٢»

الإيثار والكرم ولو بالقليل

■ نهى الإسلام عن التبذير والإسراف، كما نهى عن البخل والتقتير، وجعل المبذرين من إخوان الشياطين، وعلّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستعيذ بالله من البخل والعجز وغلبة الدين!!.

ولكن في أحيان كثيرة، ومن أجل غايات سامية، يلجأ الإنسان إلى الاقتصاد في المعيشة، وإيثار التضحية بالكماليّات من أجل تحقيق غرض كريم، أو من أجل المصلحة العامة. ويُعدُّ موقف الأنصار (رضوان الله عليهم) من أسمى المواقف في التاريخ الإنساني كله، حين شاطروا -أو على الأقل- كانوا يشاطرون إخوانهم المهاجرين في أموالهم ودورهم، مؤْثرين على أنفسهم، محبِّين من أعماق قلوبهم من هاجر إليهم..!!.

■ وعندما كان بيت النبوة الكريم يطعم الطعام على حبّه (أي الحاجة إليه) مسكيناً ويتيماً وأسيراً.. كان يُقدّم صورة أخرى من صور السمّو الإنساني والإيثار الكريم..!!.

■ وللأسف، ففي حياتنا المعاصرة كثيرٌ من صور التبْذير تقع في السلوكيات الشخْصيّة، وبعضُها يجمع بين حرمة التبْذير وحرمة الشيء نفسه، كتعاطي الدخان والنارجيلة، فضلاً عن المخدّرات الأخرى، وبالإضافة إلى مأكولات أجنبية ومشروبات لا تُعرف

تفْصيلات مكوِّناتها، بينما لدَينا من أرضِنا ووطننا موادّ حلال، معروفةٌ مكوّناتها، مضمونة في حلها، ومع ذلك يزهد الناس فيها، ويوقعون أنفسهم في الشبهات والمحظورات، فضلاً عن وقوعهم في التبْذير والترف والإسراف!!.

■ ولو فكَّر هؤلاء تفكيراً إسلامياً وعقلياً، لعلموا أنهم يستطيعون أن يصنعوا الكثير لأنفسهم وأولادهم وأمتهم وأوطانهم عندما يتجنبون التبذير والإسراف في السلوكيات الشخصية أو الأفراح!!.

وهذه قصة رجل صالح عرف هذه الحقيقة، وقام بتطبيقها على نفسه، مع أنه كان فقيراً...

■ ولم يدَّخر الرجل من مشروبات حلال أو حرام، ولا من أفراح أو مناسبات، بل إنَّه ادَّخر من قوت نفسه؛ لأنه كان يحلم بأن يبني جامعاً في مكان من أفضل الأماكن بالنسبة لرؤيته ولقومه الذين يريد أن يبني الجامع بينهم..، ويقول المؤرخ والمفكر المعاصر (أورخان محمد علي): إننا لكي نعرف القصة الحقيقية لهذا الجامع وهذاالرجل يجب أن نفتح الصفحة رقم (١١٩) من الجزء الأول من كتاب (جوامع اسطنبول) لكي نقرأ قصة شخص ورع كان يعيش في منطقة (الفاتح) واسمه (خير الدين كججى أفندي).. فقد كان صاحبنا هذا (خير الدين) عندما تتوق نفسه لشراء فاكهة أو لحم أو حلوى كان يقول في نفسه: سأفترض أنني أكلته، ثم يضع ثمن تلك الفاكهة أو اللحم أو الحلوى في صندوق عنده..

ثم مضت الأشهر والسنوات وهو على هذا الحال، يمنع نفسه عن كثير من لذائذ الأكل.. وبالتالي تزداد النقود في صندوقه الكبير شيئاً فشيئاً، حتى استطاع ذات يوم أن يشتري الأرض الصالحة للبناء، ثم يأخذ في بناء المسجد وحده دون طلب معونة من أحد.. ولما كان أهل المكان يعرفون فقر هذا الشخص، فقد فوجئوا بهذه، ولما عرفوا قصته انبهروا بها، وأطلقوا على الجامع الذي تمَّ بناؤه.. اسم (جامع كأنني أكلته)...

■ وما زال الجامع معروفاً بالتركية (جامع صانكى يدم).

أي جامع (افترض أنني أكلت).. دلالة عظيمة على ما يمكن أن يفعله الإنسان إذا تجنَّب التبذير، وحكم نفسه، وضبط سلوكياته واتَّقى الله في المال، وعَرَفَ أنه سيُسأل عن مصدره وصور إنفاقه يوم القيامة..!!.

■ وقد بقي سلوك هذا الرجل الورع الفقير مثلاً يُضرب لما يمكن أن يفعله تجنّب التبذير والإسراف... وقد أشاد المفكر والإمام التركي الكبير (بديع الزمان سعيد النورسيّ) بهذا السلوك، مشيراً إلى الدرس المستفاد منه، مخاطباً كل المسلمين قائلاً لهم:

«كلما نادتكم اللذائذ.. ينبغي الإجابة بـ (كأنني أكلت) فالذي جعل هذا دستوراً له (يقْصِد خير الدين صاحب القصَّة)، كان بوسعه أن يأكل مسجداً سمى باسم:

(كأنني أكلت) فلم يأكله!!.

■ وهو درس في الاقتصاد والزهد وقوة الإرادة وتقوى الله، يجب أن يعيه كل المسلمين.

«١٣»

الارتباط بين القول والعمل

■ كان سعيد بن المسيب تابعياً جليلاً عالماً ورعاً، جمع بين العلم والدين والثراء والزهد والفقه والبعد عن الجاه والمناصب وأصحاب الدنيا.

عاصر سعيد عدداً من خلفاء بني أمية (٤١-١٣٢هـ) على رأسهم عبدالملك بن مروان والوليد بن عبد الملك، وكانت له بعض الآراء والمواقف التي يُبدي فيها استقلاله الكامل ونزاهته في الفقه والفتيا والوعظ.

■ ونظراً لثقة ولاة الأمور في إخلاصه ومكانته وحبّ الناس له تركوه لشأنه، فلم يقع بينه وبين أولى الأمر خلاف كبير، مع أنه كان يرفض أعطياتهم، وقد رفض قبول ثلاثين ألف درهم وهبات أخرى كثيرة أرسلها إليه الخليفة عبد الملك بن مروان ٠٦٥-٨٦ هـ.

■ وأكبر من هذا كله ذلك الموقف الذي يذكر ه التاريخ بالمجد والفخر، حين رفض أن يزوِّج ابنته من وليِّ العهد (الوليد بن عبد الملك) لغرْس قيم معينة في نفوس تلامذته الذين كان يربيهم، وكانوا عنده في موضع الأبناء والمريدين، لا يبخل عن فقيرهم، ولا يمنعهم علمه وفضله في ليل أو نهار.

■ وكان (سعيد بن المسيب) -إمام التابعين- يعلم أنه ليس بدروس الوعظ وحدها، ولا بالعلم وحده، يعرف حقيقة الناس، فعلْم دون عمل صالح لا قيمة له، والقدوة بالفعل أهم من كل صور البلاغة بالقول. وعظمة الأنبياء عليهم السلام، وخاتمهم إمام المتقين محمد عليه الصلاة والسلام إنما تتجلى في تحقيقهم (القدوة المثلى) في كل ما يقولون.

والنفاق هو مخالفة القول العمل، والعمل القول والإخلاص والصدق يتأكدان في التطابق بين القول والفعل... هكذا كان سعيد ينصح الناس ويعلمهم.

■ وقد وقف سعيد مرة وقفة من وقفاته تلك.. وأخذ يتحدث إلى الناس ويقول لهم:

أتعرفون أن غضب الله لاحق بكم، ما ذاك إلا لأن سنة نبيه قد ضاعت بينكم، والرحمة قد نزعت من قلوبكم، وتكالبتم على حبّ التفاخر بالأنساب والأموال، وإن أحدكم لو خُيِّر بين أن يتزوج من سلالة النبي أو يزوج لهم أو أن يتزوج من أولياء الأمر وأصحاب الحكم أو يزوج لهم، لغلبه شيطان الدنيا وأضله هواه واختار الثانية، إني لأراكم تؤثرون لبناتكم كل ذي مال ونسب وليس كل ذي علم وأدب، وأراكم تغالون في المهور وتطلبون منها الباهظ، وتؤثرون الكثير منها على القليل، وفي ذلك كما يعلم الله انتقاص لإنسانية بناتكم المؤمنات، حيث تضعونهن موضع السلعة التي يُشتط في طلب ثمنها، وفي ذلك دليل على ضعف إيمانكم ومخالفتكم لأوامر نبينا صلى الله عليه وسلم. (أو كلاماً هذا معناه!!).

واسترسل الشيخ سعيد في حديثه وانخرط في كل أسلاكه..

وذهل الحاضرون من وقع هذا الكلام في نفوسهم..

وانتقلوا بدورهم إلى عالم الروحانية الصافي وطأطؤوا رؤوسهم وبدوا وكأنهم ما أصابوا من الدنيا وما أصابت الدنيا منهم.

■ وقد كان الذين يسمعون هذا الكلام يعرفون مدى صدقه، فهم قد رأوا صاحبه سعيد بن المسيب يرفض زواج ابنته من ولي العهد الوليد ابن عبد الملك، ويعرفون أنه زوجها (لأبي وداعة) تلميذه الفقير الذي ماتت عنه زوجته، ولم يتزوج، فأعطاه سعيد ابنته بمهر قيمته لا تزيد عن درهم وخاتم من حديد!!.

■ لقد حقق سعيد-أمامهم-عملياً- ما كان يروى عنه من مثل قوله:

الله.. الله..!! إن الدنيا حقيرة وهي إلى كل حقير أميل وأحب، وأحقر منها من أخذها بغير حقها وطلبها من غير وجهها ووضعها في غير سبيلها.

أيها الناس: لا تملؤوا أعينكم من أعوان الظلم إلا بالإنكار عليهم في قلوبكم، حتى لا تحبط أعمالكم، يد الله فوق الجميع، فمن رفع نفسه ووضع غيره خفضه الله، الناس تحت كنف الله يجازون بأعمالهم، فإذا أراد الله فضيحة عبد أخرجه من تحت كنفه فبدت للناس عورته، الله... الله..!!.. إياكم وذكر الناس بماليس فيهم ورميهم بمالم يفعلوا..!!.

لقد عاش سعيد إماماً تقياً، ومعلماً يمضي على درب النبوّة، ويقدم للناس المواقف العملية التي تتجسد فيها أخلاق تلامذة رسول الله صلى الله عليه وسلم..

ولقد أثبت سعيد بن المسيب وجيل التابعين الذين عاشوا في عصر بني أمية أنهم استمرار لعصر الصحابة، وأن نهر التقوى والصلاح كان زاخراً، وأن الذين يريدون القول بأن انتقال الأمور إلى بني أمية أَوْقَفَ تيار الشرع والقيم الإسلامية إنما يهرفون بما لا يعرفون، ويركزون على جانب ويهملون المساحة الكبيرة الوضيئة...

وسيبقى في كل عصر، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. دعاةٌ ثابتون عاملون فقهون، ظاهرون على الحق لا يضرهم من خالفهم (!!) ورحم الله سعيد بن المسيب التابعيّ الجليل الذي كانت حياته سلسلة من المواقف الرائعة الخالدة.

«١٤»

الحبّ الروحي: من أيادي الحضارة الإسلامية

■ لم يكونوا على معرفة بالحب العذري الجميل، بل كان الحب عندهم- وللأسف حتى اليوم- هو العلاقة الجنسية، أما حبّ المشاعر القلوب، وأما السمّو النفسي والروحي فقد كانوا أبعد الناس عنهما.

■ وعندما ظهر الإسلام، وانتقل إلى أوربا عن طريق إسبانيا (الأندلس) وجزر البحر الأبيض المتوسط، وزحفوا علينا يتتلمذون في معاهدنا وجامعاتنا ومكتباتنا، بدؤوا يعرفون الحبّ الشريف العذري بين الرجل والرجل (قبل عصرنا الذي يقر الشذوذ الجنسي ويعتبره حبّاً!!) وبين الرجل والمرأة، وبدؤوا يكذبون ويقولون إنه (حبٌّ أفلاطوني) بينما هو (حب عذري إسلامي)، لكنهم استمروا جحود أيادي الآخرين وأفضالهم!!.

■ كان أبو بكر محمد بن داود الظاهري الأصبهاني المتوفى (٢٩٧هـ) من أوائل من وضعوا قواعد الحب العذري الروحي في كتابه (الزهرة)، وتبعه أبو الفرج الأصبهاني (ت ٣٦٦هـ) في كتابه (الحدائق)، وهكذا كتب (إخوان الصفا) وابن المقفع في الأدبين الكبير والصغير، والجاحظ في الرسالة السابعة من رسائله من العشق والنساء، وأبو إسحاق الحصري في كتابه (المصون). إلاّ أنّ أبا محمد عليّ بن أحمد بن حزم القرطبي الأندلسي المتوفى سنة (٤٥٦هـ) قد فاق كل هؤلاء في دقة منهجه وتسلسل أفكاره، وترابط بحثه ورِقّة حسه، وبُعد غوصه واتباعه

منهجاً استبطانياً استقرائياً فجاءت رسالته (طوق الحمامة) حافلة النفيسة بالملاحظات الدقيقة، والخبرات الحيّة المعاشة، والأمثلة التاريخية والنماذج البشرية المتنوعة، أو بتعبير آخر جاء ما قدمه ابن حزم في (الطوق) نظرية متكاملة عن الحب العذري العفّ اعتمدت على عناصر البحث النفسي والاجتماعي:

١ فهي تعتمد على التجربة الذاتية المصهورة في بوتقة الضوابط الإسلامية.

٢ وهي تعتمد على ما تراه وتسمعه في الحياة الاجتماعية.

٣ وهي تقدم ذلك كله في صدق وجرأة بلا خوف أو نفاق.

٤ وهي تخرج من كل ذلك بنتائج تعممها على أعراض الحب المختلفة.

٥ وهي في ذلك محاطة بسياج من التصور الإسلامي الذي لا يرى في الحب العفيف إلا لوناً من الجهاد، عاقبته الشهادة والجنة.

■ فحتى الحبّ علمناهم إياه (بمعناه الإنساني الراقي) القائم على قوله تعالى في أوّل سورة النساء: ﴿ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وعلى قوله تعالى في سورة الروم ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.. فالقرآن هو الأصل الذي أقام العلاقة الروحية والنفسية بين الرجل والمرأة، ومنه استقى أعلامنا الكبار نظرياتهم في الحبّ الروحيّ والعذري التي علموها للإنسانية ولأوروبا!!.

■ لكنّ الحضارة الأوروبية عجزت عن الوصول إلى القمة الإسلامية الإنسانية وظلت تنتكس حتى وصلت العلاقة بين الرجل والمرأة إلى أحطّ مستوياتها في التاريخين (الإنساني والحيواني) حين أباحت زواج الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة، وإقامة (عائلة) على أساس الرغبة الجنسية بين الشخصين بعيداً عن الشريعة والقانون والدين، ومع ذلك يعتبرونها (عائلة)!!!.

■ ألا ليت الحضارة الأوروبية تستطيع أن تبقى في مستوى حضارة الإسلام الإنسانية، أو أن تحاول- على الأقل- الوصول إليها، إنقاذاً للسفينة الإنسانية الموشكة على الغرق!!.

«١٥»

علماء في الدنيا- ملوك في الآخرة!!

■ في بداية سورة الواقعة يعلمنا الله سبحانه أنه ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ فهناك ناس مرتفعون في الدنيا ينخفضون في الآخرة، وهناك منخفضون هنا يكونون في القمة في الآخرة!!.

وقد كان الإمام الشيخ محمد الغزالي يطلق على بعض الصالحين الزاهدين من أمثال الشيخ عبد العزيز بن باز- أنهم من ملوك الآخرة!!.

■ ونقدم -في هذه السطور- بعض ومضات تتصل بهؤلاء الأعلام الذين يستحقون هذا اللقب الكريم.. (!!) فمن الجدير بالذكر أنه لمَّا ظهرت الدولة الإسلامية، بعد انقضاء عصر الراشدين- كان الحكام يتنافسون في تقدير العلماء وتشجيعهم، والفوز بخدمتهم.

■ ومن هؤلاء الحكام الذين اشتهروا بتقدير العلم والعلماء: الخليفة العباسي (المأمون) في بغداد (وسيف الدولة الحمداني) في حلب و(عبدالرحمن الناصر) و (المعتمد بن عبّاد) في الأندلس، وغيرهم كثيرون.

■ وقد كان هؤلاء الحكام، وغيرهم يُولّون العلماء أرفع المناصب في الدولة، وتُساعِدُهم على طلب العلم، والغنى عن الناس، وكانو يستشيرونهم في أمور الدولة، ويأخذون برأيهم، ويصطحبونهم في معاركهم.

■ وقد كان للعلماء من المكانة والهيبة ما أرغم الحكام على الخضوع لهم، فقد حكم العالم الزاهد (العزُّ بن عبد السلام) على المماليك في مصر- أن يبيعوا كل ما يملكون من الذهب قبل أن يفْرضوا الضرائب على الشعب، من أجل معركة (عين جالوت) واستجاب المماليك لرأيه، وانتصر المسلمون في المعركة الخالدة التي أنقذت الإسلام والمسلمين جميعاً، بل والحضارة الإسلامية سنة (٦٥٨هـ) وكانت من هدايا مصر الخالدة للعالم الإسلامي.

■ وكانت البلاد الإسلامية الكبرى تمثل مراكز إشعاع للعلوم، تتنافس في احتضان العلماء، واقتناء الكتب. ومن هذه المراكز العلمية التي اشتهرت: بغداد، والبصرة والكوفة، والقاهرة، والقيروان، وقرطبة وإشبيلية، ودمشق، وفاس من المغرب وبجاية بالجزائر.. وغيرها من العواصم الإسلامية، فضلاً عن المدينتين المقدستين مكة والمدينة، ومسرى الرسول وأولى القبلتين القدس الشريف، أعادها الله للإسلام.

■ وقد بلغ التنافس العلميّ الكريم بين البلاد الإسلامية أن كانت كل بلد تباهي الأخرى بمن عندها من العلماء والفقهاء والنابغين، فكان المشرق العربي ينافس المغرب، وكانت الأندلس، تنافسهما جميعاً. وقد ألّف ابن حزْم الأندلسي (فقيه الأندلس وأديبها العظيم) رسالة ذكر فيها طائفةً: من علماء الأندلس يقيسهم ببعض علماء المشرق وأدبائه، فيقول مثلاً: إن فلاناً عندنا نُباهي به جريراً أو الفرزدق الشاعر، وفلاناً نُباهي به الإمام البخاري المحدث، وفلاناً نسابق به محمد بن يزيد المبرِّد الأديب وهكذا وهكذا..!!.

■ وكان الناس يجلّون العلماء إجلالاً نابعاً من ضمائرهم الإسلامية، وعواطفهم الصادقة التي لا يشوبها خوف أو نفعٌ، وكثيراً ما احتفلوا بهم أكثر من احتفالهم بملوكهم.. وإذا ماتوا بكوا عليهم أكثر من بكائهم على آبائهم وأمهاتهم.. في حدود ما تسمح به الشريعة الإسلامية الغَّراء!!.

■ وممن يعدُّون في حضارتنا من أكبر الزاهدين والعلماء العاملين الإمام الورع (عبد الله بن المبارك) الذي كان من أثرياء عصره ومن زهاد عصره ومن مجاهدي عصره.

وقد رُويت في كرمه وجهاده صورٌ رائعة، وكان يحجّ في ركبه على نفقته موكبه كله الذي يحج فيه. وكان يرعى بيوتاً كثيرة، وكان كثير المرابطة في سبيل الله..!!.

■ وقد حكى المؤرخون أن الخليفة (هارون الرشيد) قدم يزور مدينة الرِّقَّة وقدم في الوقت نفسه عالم خرسان (عبد الله بن المبارك)، فأسرع الناس خلْف العالم، (ابن المبارك) حتى ازدحمت بهم الطرقات، وارتفع الغبار في الجوّ، وتقطَّعت النّعال، ونظرت زوج الخليفة من النافذة، فرأت المنظر، فقالت: (هذا والله الملك لا مُلك هارون الرشيد الذي لا يجمع الناس إلا بالشرطة والأعوان)!!.

■ وما أحب الناس عبد الله بن المبارك هذا الحبّ، ولا خضع المماليك للعز بن عبد السلام هذا الخضوع، إلا لأنهم رأوا علماء يسبق عملهم قولهم، وتسبق في سلوكهم مطالب الآخرة مطالب الدنيا، ويؤثرون ما عنْد الله على ما عنْد الناس.. ولو أن أهل العلم في عصورنا

صانوه لصانهم الله به، ولو عظّموا تقوى الله لوضع الله تعظيمهم في قلوب الناس.. وقد رأينا هذا بأعيننا فيما وقع عند وفاة الشيخين الجليلين الإمام الكبير محمد الغزالي، والإمام محمد متولي الشعرواي.. فما زال فضل الله موصولاً.. (وإنْ عدمتم عدنا).. (وما عنْد الله خير وأبقى).. ورحم الله العلماء العاملين الورعين.. ملوك الآخرة!!.

«١٦»

تفاعل حضاري إيجابي قديم وحديث

■ في مواجهة الغارات والهجمات الحضارية والدينية يسقط في الفتنة الكثيرون، ولكن الأقلية التي اصطفاها الله تواجه التحديات بثبات، وتستحدث للنّصر الوسائل والآليات المناسبة، وكان محمد فريد وجدي ممن واجهوا الحضارة الأوروبية بنجاح كبير، وعاش طيلة حياته (١٨٧٨ -١٩٥٤م) يردّ الغارات عن الإسلام وحضارته، ويعمل عقله في تقديم البدائل والأخذ بأسباب التقدم.

■ وكان المصلح المجدُّ (محمد فريد وجدي) رحمه الله تعالى - متعدد الملكات والمواهب، وليس أدّل على ذلك من توافره على كتابة (دائرة معاوف) ومن (تفسيره القرآن الكريم).. والقيام بهاتين المهمّتين يتطلب شمولاً في الثقافة، والإحاطة بكل فرع من فروع المعرفة على اختلاف- بالطبع- في هذا الشمول وتلك الإحاطة، وليس يشبه (فريد وجدي) إلا الأسلاف البواسل الذين أنجبتْهم العقيدة الإسلامية من نظائر (السيوطي) و(الغزالي) و(ابن حزم) وابن تيمية) و(ابن القيم) وغيرهم «ممن كتبوا في كل شيء، وبرعوا في كل شيء.. وليس يشبه (وجدي) حديثاً إلا الأستاذ (عباس العقاد)، ونكاد نجزم بأنها نزعة طموحية أخذها العقّاد عنه، بوعي أو بلا وعي، إبّان الفترة القصيرة التي قضاها معه محرراً في مجلته (الدستور).. لقد كتب فريد في كل

شيء.. كتب فريد وجدي في العلم الطبيعي، وكتابه الشهير (على أطلال المذهب المادي) آيةٌ ناصعة في ذلك، وكتب في الفلسفة، ومباحثه عن (الإنسان والكون) التي زخر بها كتابه (الإسلام في عصر العلم) دليلٌ على صدق ما نقول..

وكتب محمد فريد وجدي في الأدب العام المقالة والقصة والقصيدة لينافس ما يكتب عن الإسلام والعربية، وليعدَّ جيلاً مسلماً مؤمناً بدينه وتراثه وحضارته ورسالته نحو العالم!!.

■ وكان موقف الأستاذ (وجدي) من نشر الإسلام في العالم عن طريق ترجمة معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية من أعظم خدماته للإسلام والمسلمين..!!.

لقد كانت فكرة ترجمة (معاني القرآن) التي حمل لواءها ابتداء الشيخ (محمد مصطفى المراغي) شيخ الأزهر منذ عام ١٩٢٩م من وسائل المخلصين للإسلام في مقاومة العزو الثقافي والتغريب. وقد جرت معارك طويلة سنة ١٩٣٢، ١٩٣٥م ثم سنة ١٩٣٦م حول هذا الموضوع: أيجوز ترجمة المعاني أم لا؟ وقد دعا محمد فريد وجْدي إلى ترجمة معاني القرآن ترجمة صحيحة؛ حتى ينجو من تحريف المحرِّفين، وقال: إن هذا العمل خيرٌ من أن يُتْرك القرآن للمترجمين من متعصِّبة الأمم يحرِّفونه ويشوِّهون معانيه، ويعيب (فريد وجدي) إصرار بعض العلماء على حبْس الإسلام في دائرة العربية التي لا يحسن فهمها غَيْر أهلها وتجريده من الأسلحة العالمية (وهي اللغات الحية) التي يستطيع الناس فهم حقائق الإسلام من خلالها.

ويقول فريد وجدي للمعارضين لترجمة معاني القرآن: إن وضْعَ القيود غيْر المعقولة من مسألة نقله يقْضي علينا بهزيمة منكرة تقع نتائجها علينا وعلى أبنائنا وأحفادنا قروناً طويلة.

■ ومعنى ذلك منْع القرآن من الجولان من الدورة الفكرية العالمية مع غيره من كتب الأديان وأسفار المذاهب.. إنَّ تعطل القرآن عن الترجمة والقيام به في معترك الأفهام إلى اليوم قضى عليه بألا يكسب أنصاراً من الأمم القريبة، فصار قاصراً على الأمم الشرقية التي رضيت أن يكون حظُّها من دينها كحظّ الببغاء!!.

■ وقد أصدر فريد وجدي كتاباً بعنوان (الأدلة العلمية على جواز ترجمة القرآن) يقصد ترجمة المعنى بسط فيه كل ما يمكن قوله في هذه القضيّة، مستهشداً بآراء العلماء والمفكرين الإسلاميين. وقد أفحم بمقالاته التي نشرها في مجلة الأزهر وجريدة الأهرام وغيرها المعارضين لترجمة المعاني القرآنية من أمثال الشيخ محمد سليمان والشيخ محمد مصطفى الشاطر (القاضي بمحكمة شبين الكوم الشرعية). وكان مما قاله في هذا الصدد:

«هل الورع أن يقف المسلمون جامدين مكتوفي الأيدي أمام أمثال هذه الحركات الفكرية التي تجتاح العالم اليوم، ليتوهَّم العالم كله أننا لا نملك سلاحاً نكافح به في ميدان هذا الجهاد الفكريّ في هذا العصر الحديث»؟!!

■ وفي النهاية استشهد فريد وجدي بأقوال بعض المفكرين الذين اطَّلعوا على تراجم للقرآن من مثل (جوته) من قوله: «لو كان هذا الإسلام فنحن إذن فيه أي أن الإسلام دين الفطرة، وكل سليم الفطرة يمكن أن يصل إلى الإسلام بسهولة!!.

ومن مثل قول (برناردشو) بعد أن اطلع على ترجمة لمعاني القرآن أيضاً:

«إن الديانة الإسلامية كفيلة بتضميد جراح الإنسانية، وإن العالم المتمدن قد بدأ يفهمها على حقيقتها. ولا أظن أنه يمضي عليه قرنان حتى يكون قد أسلم».. ثم يعلق فريد وجدي على هذه الأقوال بقوله:

ليت شعري لو لم يكن الأوروبيون قد اطّلعوا على ترجمات لمعاني القرآن، أكانت تصدر عنهم تلك التصريحات الخالدة؟.

إن الذين يقفون في طريق ترجمة معاني القرآن يريدون عن عمد أو غير عمد جَعْلَ الرسالة المحمدية رسالةً محلية وطعنها بذلك في الصميم وإيقاف انتشارها في العالم!!.

■ وكانت من أطيب ثمار (وجدي) في هذا السبيل أن ترجمة (معاني) القرآن أصبح رأياً مجمعاً على جوازه.. بل وجوبه.. بعد أن جادل فيه محدودو الرؤية سامحهم الله... وبهذا الموقف العقلاني الرائع، وأمثاله، قدَّم (وجدي) موقفاً إيجابياً من التفاعل الحضاري.. ليس بالرفْض أو التقوقع، بل بالثقة وتقدم ديننا وحضارتنا للإنسان..

إنسانية الإسلام في معاملة

أهل الذّمة (الأقليات)

«١»

الإسلام يحمي الأقليات

لم تعرف حضارة الأوروبيين (الوسطية) للاهوتية ظاهرة حماية الأقليات.

وحتَّى عندما يبرمون عقوداً تفرض عليهم حماية الأقليات، فإنهم سرعان ما ينقضونها، كما فعلوا في محاكم التفتيش مع مسلمي الأندلس.

وقد يظن بعضهم أن الحضارة الحديثة غير ذلك، مع أنها كانت تراهن على ذوبان الأقليات فيها، وعندما وجدتهم يتمسكون بعقيدتهم وحضارتهم قلبت لهم ظهر المجنّ، كما هو معروف في أيامنا تلك..!!.

■ وحتى في حروبهم، وعندما ينتصرون ويكّونون دولاً باسمهم كانوا يخططون لإبادة الآخرين.. وهكذا، فعندما كان الصليبي المحارب -كفرد- ينطلق في حربه، فإنه إنما ينطلق لهدف محدد، وهو ذبح المسلم (الكافر في رأيه).. تلبيةً لنداءات الحقد المغروسة فيه.. وقد كان (أوربان الثاني) يدعوهم إلى إبادة المسلمين بحجة أن الله يريد ذلك!! وقد ثبت أن الله لم يرد ذلك.. بل أبيدت حملات صليبية كاملة بأطفالها.. بيد الصليبين أنفسهم!!..

■ أما بالنسبة للمقاتل المسلم فكان عليه في كل حروبه أن يتقيد بالواجبات الأخلاقية القاضية بأن يجمع في جهاده بين الجهادين الأصغر (الذي هو القتال) والأكبر الذي هو كظم الغيظ وكبح الانفعالات ومعاملة الأعداء بشهامة وأخلاق!!.

ومن جهة أخرى -كما يرى بوازار صاحب إنسانية الإسلام - كان الإسلام دائماً يملك مؤسسة لحماية الأقليات الدينية غير المسلمة الواقعة تحت إشراف المسلمين. وهي مؤسسة تحمي رجال الدين من غير المسلمين ومعابدهم، فالمجاهد المسلم يصون معابد أعدائه المحاربين امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً ﴾ (الحج: ٤٠).

وقد أكدت السنة النبوية بدقة منع المقاتلين المسلمين من المساس برجال الدين غير المسلمين، في حين أنهم كان يجب أن يكونوا منطقيي الأهداف الأولى والرئيسة، لو كان الحافز إلى الجهاد لإرغام الناس على اعتناق الدين!!.

ويقول (بوازار): إنه في وسعنا أن نذكر من باب التضاد، ومن غير أن نسعى لمحاكمة الحضارة الغربية، أنه بعد عدة قرون أخرج مؤسسو القانون الدولي في أوربا المسلمين (الكفرة) من دائرة الإفادة من قانون الحرب فكأنهم ليسوا بشراً يملكون أدنى الحقوق اللهم إلا الذبح والإبادة والدمار.

«٢»

اليهود ينعمون بالتسامح في ظل الحضارة الإسلامية

عندما دخل الإسلام إلى إسبانيا سنة ٩٣ هـ كان اليهود محكوماً عليهم بالطرد من إسبانيا ومصادرة أموالهم وفرض التعميد التنصيري على أبنائهم إذا وصلوا إلى سن السابعة، فكان الإسلام طوق نجاة لهم من هذا المصير التعيس، ولهذا رحبوا بالمسلمين، وبالتالي مكنهم المسلمون من المناصب، ومن الحياة الكريمة. وعاشوا على امتداد الوجود الإسلامي في الأندلس (٩٣-٨٩٧هـ).

أي ثمانية قرون أعزاء أثرياء، ووصل بعضهم إلى درجة الوزارة - وقد تجرأ الوزير اليهودي ابن النغزيلة، فكتب وهو وزير للمسلمين كتاباً يهاجم فيه الإسلام، ورد عليه أبو محمد بن حزم ت٤٥٦ بكتابه المشهور المعنون باسم (الرد على ابن النغزيلة).

وبما أن المسلمين كانوا أقوياء عاش اليهود ينعمون بهذا التسامح الإسلامي الذي شهد له المؤرخون المنصفون.. فلما بدأ المسلمون يضعفون بعد هزيمة دولة الموحدين في موقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ بدأ اليهود -كعادتهم- يتنكرون للمسلمين ويغدرون بهم ويضعون أيديهم في يد القوى النصرانية الزاحفة.. ولم يتركوا وسيلة لمجاملة النصارى على حساب المسلمين إلا استخدموها، فلقد دلوهم على عورات المسلمين، وساعدوهم على الاستيلاء على المدن الأندلسية، وتظاهروا بالترحيب بهم.. تخلصاً من المسلمين.

كان هذا هو موقف المسلمين في الأندلس، وكان هذا هو موقف اليهود منهم.. لقد قوبل التسامح والعدل بالخيانة والغدر!!.

وعندما دار الزمان.. وبدأ النصارى يستشعرون الاستغناء عن خدمات اليهود، ويشعرون بأن مستقبل أسبانيا يحيل لمصلحتهم بدؤوا يعاملون اليهود معاملتهم الطبيعية السابقة التي استمرت خمسة عشر قرناً قبل ذلك.. لقد أبعدوهم وصادروا أموالهم، وأرغموهم على التظاهر بالنصرانية.. وكان بهم نصيب كبير في محاكم التفتيش التي أحرقت المسلمين وطردتهم وصادرت أموالهم.. وكان هذا درساً من الله لكل الغادرين!!.

ومن العجيب أن نحواً من مئة وخمسين ألفاً من اليهود طردوا من إسبانيا وأوروبا في هذه الظروف، ومع ذلك كان العالم الإسلامي يستقبلهم ويفسح لهم بين جنباته، كأنهم لم يفعلوا شيئاً..

وكان هذا موقفاً إضافياً يدل على طبيعة حضارة الإسلام وطبيعة دين المسلمين!!.

«٣»

نموذج من صقلية

بدأ تفكير المسلمين في فتح جزيرة صقلية في الربع الأخير من القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) وبالتحديد في دولة الأغالبة في تونس وأميرها (زيادة الله الأغلبي).

وقد اختير لفتح جزيرة صقلية فقيه وقاض هو أسد بن الفرات فقيه الدولة الأغلبية وقاضيها، ولكنه استشهد في أثناء الفتح فقام بإتمام الفتح بعد أسد بن الفرات قائد فطن يسمى محمد بن أبي الجواري!!.

وقام المسلمون بجهود كبيرة في صقلية بتحضير البلاد ونشر العدل فيها لدرجة أن كثيراً من العلماء المسلمين نسبوا إلى صقلية، وتفوق كثير منهم في العلوم الشرعية والجغرافية والكوفية بصفة عامة، وهناك قوائم كثيرة وكتب تحدثت عن سياسة المسلمين في صقلية وازدهار العلم والعلماء فيها، لدرجة أن بعض حكام صقلية النصارى بعد خروج المسلمين منها استبقوا بعض هؤلاء العلماء فيها، ومكنوهم من نشر العلوم ومن النشاط في عالم الاختراع والإبداع في المجالات العمرانية والثقافية وتخطيط المدن والمجالات الزراعية والصناعية!!.

كان هذا هو موقف المسلمين في صقلية.. فماذا كان موقف أعدائهم منهم بعد سقوط صقلية وطرد المسلمين منها؟.

إن التـاريـخ يقـول لنا : إن الكونت روجـار الأول بادر عـقـب دخـوله (ماليربو) عاصمة صقلية إلى تحويل مسجدها الجامع وعدد آخر من المساجد إلى الكنائس.

ومن الناحية الاقتصادية عامل النورمان الذين طردوا المسلمين من صقلية أسوأ معاملة، بحيث تأثرت حياتهم المعيشية أكبر تأثر، فقد دمرت قراهم على نطاق واسع، وأرغموا على دفع جزية مرتين في عام مما أدى إلى هجرة أعداد منهم إلى إفريقيا، وزاد الطين بلة أنه على امتداد حكم روجار الأول ١٠٩١- ١١٠١ وقع الاستيلاء القهري على أراضي المسلمين الواسعة، وأعطاها روجار هدايا لأقربائه وأصحابه، كما اتخذ المسلمين عبيداً في أراضيه التي كانت أرضاً لهم!!.

وبين هذا وذاك كانت تقوم مذابح لإبادة العرب، وقد دفع هذا السلوك غير الحضاري والإنساني المؤرخ الأوروبي دانيال إلى التعليق على هذه السلوكيات بقوله: «إن هذا الذي حدث موجز للرحمة التي كانت أوروبا تقدمها دائما للعرب.. فهي رحمة مشروطة بالقضاء على دينهم وبعزلهم ليكونوا جماعة ذات كيان منفصل». وهي شهادة كافية للدلالة على إنسانيتنا في جانب وبربريتهم في جانب آخر، ومع ذلك يرموننا -بلا خجل- بالتطرف والبربرية وهم في ذلك كما يقول المثل: «رمتني بدائها وانسلت»!!.

«٤»

احترام دور العبادة لدى غير المسلمين في حضارتنا الإسلامية

■ من الكتب الطريفة التي أبدعها أسلافنا، والتي تدل على منهجهم التجريبي والعلمي العميق كتاب (آثار البلاد وأخبار العباد) للجغرافي العالم زكريا بن محمد بن محمود القزويني (١٢٠٣-١٢٨٣م).

ونحن نقتطف بعض الصور من هذا الكتاب مستدلين بها على تسامح وسمو الحضارة الإسلامية التي تحترم كل دور العبادة للمسلمين وغير المسلمين، فالقزويني يتحدث عن القدس قائلاً: وبها -أي القدس- الأقصى الذي شرفه الله تعالى وعظمه وقال: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾، وقال صلى الله عليه وسلم: «لا تُشدُّ الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا». وهو في طرف الشرق من المدينة، أساسه من عمل داود عليه السلام، طول كل حجر عشرة أذرع، وفي قبلته حجر أبيض عليه مكتوب «محمد رسول الله» خلقةً لم يكتبه أحد، وصحن المسجد طويل عريض طوله أكثر من عرضه، وهو في غاية الحسن والإحكام، مبنى على أعمدة الرخام الملونة، والفسيفساء الذي ليس في شيء من البلاد أحسن منه.

■ وإذا كان هذا ما ذكره القزويني عن المسجد الأقصى في القدس، فهو يتحدث بالروح نفسها، وبالاهتمام نفسه عن أبرز المعالم النصرانية في القدس..

إنه يقول عن كنيسة القيامة: وبها -أي بالقدس-كنيسة القيامة، وهي كنيسة عظيمة للنصارى في وسط البلد، لا ينضبط صفتها حُسْناً وعمارة وتنميقاً وكثرة مال، في موضع منها قنديل يزعمون أن نوراً من السماء ينزل في يوم معلوم ويشعله، وهذا أمر مشهور عندهم!!.

ثم يستطرد القزويني إلى بعض الحكايات المفصلة بالكنيسة قائلاً: (حكي أن بعض أصحاب السلطان ذهب إليها ذلك اليوم وقال: إنى أريد أن أشاهد نزول هذا النور، فقال له القسّ: إن مثل هذه الأمور لا تخفى على أمثالك!! فلا تبطل ناموسنا فإنا نشبه على أصحابنا لتمشية أمرنا، فتجاوز عنه!!.

■ وما يهمنا هنا هو روح التسامح في العرض عند القزويني، والحديث عن أماكن العبادة لدى غير المسلمين بالتوقير والاحترام. حتى في الأمور الخلافية، أظهر أن الأصل الميل إلى التجاوز؛ ذلك لأن الله أمرنا بذلك في القرآن، عندما قال:

﴿ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام: ١٠٨).

■ إنها الروح الإسلامية التي غرسها الإسلام، وغرسها نبيه عليه السلام، ولا يجوز أن تُخفر ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة.

«٥»

ذميون ومواطنون

يكفل الإسلام حق المواطنة الكاملة لغير المسلمين في المجتمع الإسلامي، فلهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم... وللأسف الشديد عولجت قضية (الجزية) التي يدفعها غير المسلمين من المواطنين المنسوبين إلى الوطن الإسلامي علاجاً خاطئاً من بعض الفقهاء والمفسرين، وقد استغل ذلك بعض المستشرقين والمغرضين، فبدت الجزية وكأنها ضريبة تُدفع لمجرد الاختلاف في الدين، أو لمجرد أن هؤلاء المواطنين لم يدخلوا الإسلام.

وتبين لنا قصة فتح الأندلس، وما قدمه المسلمون لأولاد غيطشة وجوليان أن هذا تحليل خاطئ كل الخطأ؛ فلو كانت الجزية تدفع لمجرد الاختلاف في الدين، لكان من الأوجب أن تدفع على الرهبان، بينما هم معفيون منها، كما يعفى منها القطاع الأكبر من غير المسلمين، كالنساء جميعاً، والأطفال جميعاً، الشيوخ والعجزة والمرضى؛ فهي لا تفرض إلا على الرجال القادرين على القتال.. وهذا في حد ذاته دليل على أن الاختلاف في الدين ليس السبب في مشروعية الجزية، وإنما يكمن السبب في اعتبار نفسي لطيف؛ يراعي مشاعر غير المسلمين، ويحترم إرادتهم وأديانهم.. فمن البدهي أن أعداء الجيوش الإسلامية قد يلتقون في الدين مع غير المسلمين من المواطنين المنسوبين إلى الوطن

الإسلامي، وبالتالي فمن باب الاحترام لمشاعرهم ودينهم ألاَّ نجعلهم يقاتلون إخوانهم في الدين في عصور كانت البواعث الدينية فيها أقوى من البواعث الوطنية «يضاف إلى ذلك أنه قد لا يؤمن انحراف بعضهم أمام الضغوط النفسية فيخذلون الجيش الإسلامي في ساعة العسرة فتكون الكارثة» فمراعاة لهذا وذاك فرض الإسلام الجزية كضريبة جندية، أو بالتعبير الحديث (بدل الخدمة العسكرية) وذلك لاعتبارات نفسية وأمنية كما ذكرنا!!.

وعندما كانت الظروف والمصلحة تسمحان أو توجبان إشراك أهل الذمة في الدفاع عن البلاد، أو القتال خارج الحدود كانت الجزية تسقط فوراً لأن أسباب مشروعيتها قد سقطت.

ويتتبع الدكتور محمد عمارة اعتماداً على كتاب الخراج لأبي يوسف وتاريخ الطبري - وفتوح البلدان للبلاذري، ومجموعة الوثائق السياسية لمحمد حميد الله - بعض الوقائع التاريخية التي ارتبطت فيها الجزية بالقتال وجوداً وعدماً؛ فهي تجب في حالة عدم المشاركة من القادر على القتال، وتسقط في حالة مشاركته.. فأبو عبيدة بن الجراح فرض هذه الضريبة (الجزية) على من تجب عليهم في مدن الشام، فلما شعر بالهزيمة وعزم على التراجع طلب إلى عماله على البلاد أن يردوا الجزية إلى من جمعت منهم لأنهم أخذوها ضريبة جندية في مقابل حماية دافعيها، أمّا وهم سينسحبون فلا بد من ردّها؛ لأن جمعها وردَّها يدور -كمعلول- مع العلة في فرضها وجمعها وجوداً وعدماً[١].

(١) الإسلام والوحدة القومية ص ٩٢ المؤسسة العربية للدراسات والنشر -بيروت ط٢ ١٩٧٩م .

وفي جرجان.. حدث ذلك أيضاً.. فقد نَصَّتْ معاهدة القائد سويد بن مقرن مع أهلها على ربط الجزية بعدم القتال؛ إذْ جاء في المعاهدة: «ومن استعنا به منكم فله جزاؤه في معونته عوضاً من جزائه» (أي عوضاً عن جزيته).. وحدث ذلك مع أهل أذربيجان ونصت عليه معاهدة القائد عقبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب مع أهلها؛ إذ جاء فيها: ومن حشر «أي استدعي للقتال» منهم في سنةٍ وضع عنه جزاء «جزية» - تلك السنة!!.

وحدث أيضاً مع أهل أرمينية، ونصت عليه معاهدة القائد سراقة بن عمرو (٣٠هـ -٦٥٠م) عامل عمر بن الخطاب، مع أهلها، إذ نصت المعاهدة على أن جمع الجزية وإسقاطها مرهونان بالاشتراك في الجيش أو عدم الاشتراك فيه ففيها.. على أن يوضع (يسقط) الجزاء (الجزية) عمن أجاب إلى ذلك الحشر «الحشد للقتال» والحشر عوض من جزائهم «جزيتهم» ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء «الجزية» ومع الجراجمة، كان «الجرجومة» في شمال سوريا بالقرب من أنطاكية حدث ذلك أيضاً عندما حاربوا وهم على نصرانيتهم، ومعهم حلفاؤهم وأتباعهم في جيش المسلمين تحت قيادة حبيب بن مسلمة الفهري..

ومع النصارى من أهل «حمص» عندما حاربوا في صفوف جيش أبي عبيدة بن الجراح، في موقعة «اليرموك» ضد الروم البيزنطيين [١].

(١) المرجع السابق ص ٩٤ .

وقد انتهى الأمر إلى إسقاط الجزية -أيضاً- عن (شهر براز) عندما التزم الأخير بالقتال مع المسلمين ضدّ عدوهم المشترك (٣٢هـ - ٦٥٢م)

ويعلق الطبري على هذه الواقعة، فيبين أن ذلك يمثل قاعدة متَّبعة.. يقول: «وصار ذلك سنَّة فيمن كان يحارب العدوَّ من المشركين»[1].

أي أصبح إسقاط الجزية عمن يقاتل مع المسلمين قاعدة... والحق أنه قاعدة.. والحق أنه قاعدة شرعية.. قبل أن يكون سنَّة عملية!!.

(١) تاريخ الطبري ٤/١٥٦ طبع دار المعارف مصر ١٩٧٠م .

«٦»

المستأمنون والآداب الشرعية

ومع ما هو معروف من حقوق المستأمنين؛ لاجئين أو سياسيين دبلوماسيين أو سائحين؛ فإن الأعراف الدولية، والقوانين المحلية التي لا ترفضها الأعراف العالمية، توجب على هؤلاء مراعاة الدين والعادات في البلاد التي يقيمون فيها، وأن لا يستغلوا الحماية الممنوحة لهم لإثارة مشاعر الناس أو الإساءة إلى دينهم وقيمهم أو نشر الرذائل بينهم!!.

ولا يوجد عرف دولي، ولا حق إنساني تقره المواثيق الدولية، يسمح لهؤلاء أو يفرض علينا أن يدخل هؤلاء إلى بلادنا الإسلامية (بل إلى مساجدنا أحياناً متهتكين؛ يفجعون المصلين في مشاعرهم، بل على العكس فإن هؤلاء المنحلين والمنحلات لا يدخلون (الفاتيكان) إلا بملابس محتشمة وفقاً لطقوس (الفاتيكان).

ودار الإسلام ومن فيها وزوارها محكومون بالشريعة الإسلامية، ويجب أن يحترموا مشاعر أهلها، ويستثنى من ذلك عقائدهم وأطعمتهم بحيث لا يؤذون بها مشاعر المسلمين. وفي القرآن ﴿ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾؛ فلا كرامة لهؤلاء إلا إذا التزموا بأوامر ديننا.. في الإطار الاجتماعي العام الذي يضمُّنا، ويضمهم ويؤثر على أبنائنا وبناتنا.

نعم، إن حقوق السياح هي حقوق الجار المسلم؛ الذي نصَّ الرسول صلى الله عليه وسلم على أنه (جارٌ له حق واحد)، وعلى ضوء هذا يتبين لنا أن معاملة المسلمين لغيرهم، سواء كانوا أهل ذمة أم مستأمنين كالسائحين، يجب أن تكون معاملة كريمة وأن نتعاون على ما يريح هؤلاء الناس؛ إظهار للمبادئ الإسلامية السمحة!!.

ومعروف أن خلفاء المسلمين كانوا يستقبلون هؤلاء بما يوافق المبادئ الإسلامية، العادلة الكريمة، ويقدمون لهم كل صور العون -بل الكرم- الممكنة!!.

وفي كثير من الأحوال تظهر صلة السياحة بالتجسس والتآمر؛ ليس فقط عن طريق الحصول على المعلومات أو ترويج الشائعات، أو استقطاب العملاء، وإنما أيضاً عن طريق التقاط الصور للمواقع الحساسة، والتعرف على اتجاهات الرأي العام، وتحليلها للإفادة منها، وتوجيهها، أو استثمارها إلى غير ذلك من صور التجسس التي لا يمكن حصرها، فالمهم أن كل صور التجسس حتى ولو كانت تحت شعار المعرفة العلمية والتاريخية هي صور تناقض عهد الأمان إذا تأكدنا من خضوعها مادياً أو استراتيجيا للأعداء!!.

وإذا اتصلت هذه القضية بأمن الأمة، وكانت وثيقة بعمل عسكري مباشر، فلا خلاف على عقوبتها (القتل) -أيضاً- لمخالفتها لأصل عهد الأمان (!!)، وقال بعضهم يعاقب بالتعزير الملائم لحجم الجريمة، على قدر ما يراه الإمام أو الحاكم ملائماً.

أما إذا دخل السائح أو المستأمن عموماً بإذن (الأمان)، ثم تبين أنه إنما دخل ليساعد المشاغبين على السلطة، المخالفين لولي الأمر، وهم (البغاة) الخارجون عن طاعته، فإن أمانهم ينتقص، ويعاملون معاملة الحربيين، وتسقط عنهم حصانة (الأمان)؛ وهذا في رأي جمهور الأمة، ومن بينهم الأحناف والحنابلة والشافعية وغيرهم. وهذا بالطبع مالم يتأكد لنا أن (البغاة) المسلمين هم الذين أكرهوهم على ذلك.

إن حقوق الناس -في الإسلام - مسلمين كانوا أو غير مسلمين حقوق متوازنة تقوم على مراعاة الواجبات والحقوق معاً، وتحترم كل المشاعر والعقائد، وتخدم إنسانية الناس في مستواهم الإنساني الذي لا يجوز أن ينحدروا عنه تحت شعارات فوضوية كاذبة.

إنسانية الإسلام في الحروب

«١»

حروبنا.. إنسانية للدفاع عن الدعوة

■ لم تكن حروب الإسلام لإقامة إمبراطوريات أو لفرض الإسلام على الناس، بل كانت حروباً فرضها الأعداء على المسلمين، فقد عذبوهم وأخرجوهم من ديارهم، وتربصوا بهم،.. ومع ذلك عفا المسلمون عنهم.!!

وكان المسلمون يفرقون بين حروب الدعوة وحروب الدولة، ويريدون أن حروب الدولة قد لا تكون في مصلحة الإسلام حتى مع الانتصار، فالعبرة بمصلحة الدعوة للإسلام.

■ فعندما رأى عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ) أن الفتوحات أصبحت معارك (دولة) على حساب (الدعوة) أوقفها، لأن الدعوة هي الهدف، وبدون الدعوة تصبح الحروب وسيلة تدمير لجميع الأطراف!!.

لقد شاع لدى كثير من المؤرخين أن عمر بن عبد العزيز أوقف الجهاد وأمر الجند كله بالقفول بحجة أن الجهاد تحول إلى تجارة، بينما النبي (رحمة مهداة) وأنه بعث (هادياً) لا جابياً، وكان من نتائج ذلك، تأخر فتح القسطنطينية كما كان من نتائجه توقف تقدم الإسلام في أواسط آسيا لأكثر من نصف قرن.

ومع ذلك فإن المؤرخين لم يعيبوا على عمر بن عبد العزيز هذا السلوك، ثقة منهم في أنه كان يعمل لمصلحة الدعوة، وقد دخل الناس الدين في عهده أفواجاً على الرغم من هذا الموقف الذي من شأنه

التقليل من هيبة الدولة ومكانتها، وعلى الرغم من مآخذ بعض المؤرخين، لكن الدعاة لم يستسلموا لمفهوم الدولة عن الحروب، بل قاوموه واستخدموا التجربة التاريخية للنبي ﷺ والخلفاء الراشدين لدعم وجهة نظرهم في الدعوة، وفي أن الجهاد بأشكاله المختلفة مستمر إلي يوم القيامة لحساب الدعوة وحدها.

■ وعندما فشل الفقهاء والدعاة وانتصر مفهوم (حروب الدولة) بعد عمر بن عبد العزيز (١٠١-١٣٢هـ) كان لا بد أن تترنح الدولة الأموية آيلة للسقوط!!.

ومثل ذلك وقع في الأندلس، فلقد انتصر المنصور بن أبي عامر (٣٦٦-٣٩٢هـ) في سبع وخمسين غزوة ضد نصارى الشمال الإسباني، ولم يهزم في معركة قط، وقد جلب الخير الكثير لشعبه، لدرجة أنه سمي (الجلاّب)، لكن ما إن مات المنصور حتى ترنحت الأندلس داخلة في عصر من أسوأ عصور الأندلس، وهو عصر الفتنة (٣٩٩-٤٢٢هـ).

وكان السبب الرئيسي أن هذه الحروب كانت حروب دولة، ولم تكن معارك اقتضتها مسؤولية الدعوة.

وهكذا كان الفقهاء المسلمون والدعاة إلى الله واعين بأهداف الحروب الإسلامية، وبأنها ينبغي أن تكون للدفاع عن الدعوة حتى يتبين الرشد من الغي دون إكراه في الدين، ولا يجوز أن تسمى حروباً إسلامية، وهي لتحقيق مجد سلطان من السلاطين، أو دولة من الدول، أو لجلب الغنائم والأموال، إن مثل هذه الحروب لا تحسب على الإسلام، وهي ليست خالصة لوجه الله بل هي للرياء والسمعة!!.

هذا في الوقت الذي جاءت كل الحروب الأوروبية والأمريكية لفرض السيطرة والهيمنة السياسة والاقتصادية، وحرمان الشعوب من ثرواتها ومن عقائدها وثوابتها، بعيدة عن كل أهداف نبيلة أو غايات دينية أو إنسانية، والدين من حروبهم براء.

«٢»

الإنسانية والرحمة والعفو في الحروب

■ من المعترف به من كل المؤرخين مسلمهم وغير مسلمهم أن صلاح الدين الأيوبي رضي الله عنه ورحمه رحمةً واسعة قَدَّم صفحة رائعة من التسامح والكرم مع غير المسلمين، على العكس من شنائعهم المعروفة التي قاموا بها في الحروب الصليبية عندما استولوا على أنطاكية (وقتلوا عشرة آلاف)، وعندما استولوا على بيت المقدس (وقتلوا سبعين ألفاً على الأقل).. ومع هذه الصفحة الرائعة من الكرم والتسامح مع الأعداء ركل القائد الإنجليزي (اللنبي) قبر صلاح الدين بقدمه عندما دخل دمشق، وقال: «لقد عدنا يا صلاح الدين!!».

■ وأظن أن كل عاقل من حقه أن يسأل: ماذا فعل صلاح الدين بهذا الجزاء؟.

أم أن الأوروبيين يعرّون التسامح وفكّ الأسرى وعدم مقابلة الموت بالموت والعُنف نوعاً من الضعف والحوز؟!!.

ومع التاريخ الدموي الفظيع للحضارة الأوروبية ضد الإنسانية والمسلمين بخاصة دأبت هذه الحضارة الظالمة على تشويه دين المسلمين وحضارتهم وترويج أنهم أهل السيف وأن حضارتهم حضارة العنف!! (والحق أنهم أصحاب الحق الوحيدون في الظلم والعنف عبر تاريخهم كله!!).

■ لقد كان صلاح الدين الأيوبي (وآل زنكي من قبله) ثم الأسرة الأيوبية بعد صلاح الدين -هم- بحق- أبطال الدفاع عن الإسلام وإنقاذ المشرق الإسلامي من الغارة الصليبية.. ولهذا فهم مكروهون مهما قَدَّمُوا من إنسانيات وأخلاقيات ومن صور الكرم والتسامح البالغة التي تزهو بها صفحات التاريخ الإنساني!!.

■ ولقد قدَّم صلاح الدين -بحق- مع نفسه وسلوكه الخاص، ومع جنده ومن حوله من المسلمين، ومع أعدائه، صفحة أخلاقية راقية تتجلى فيها قيم الإسلام السامية الرفيعة.. لقد نسي صلاح الدين تماماً أموره الخاصة، بل وعواطفه نحو الأمور الشخصية، وآثر ما عند الله ومصلحة الأمة على كل شيء، لدرجة أن ابن أخ له وكان عزيزاً عليه، مات، فأخفى صلاح الدين الخبر حتى لا يؤثر على مواجهة المسلمين للأعداء.. ومن ثم أظهر الكتاب ووقف عليه، وبكى بكاءً شديداً حتى أبكانا من غير أن نعلم السبب، ثم قال صلاح الدين رحمه الله والعَبْرة تخنقه: توفي تقي الدين عمر ابن أخي: فاشتد بكاؤه وبكاء الجماعة، (كما يقول بهاء الدين بن شداد).

وكان هذا الإعلان في مرحلة متقدمة من المواجهة.. وقد بقيت بعض الأعباء.. يقول ابن شداد: «ثم عدت إلى نفسي (أي ابن شداد) فقلت: استغفروا الله تعالى من هذه الحالة، انظروا: أين أنتم، وفيم أنتم، وأعرضوا عما سواه»، «وهكذا ينصح ابن شداد السلطان ومن معه حتى لا تؤثر عليهم العواطف.. وهنا يوافق فوراً صلاح الدين ويقول

مستدركاً: نعم، أستغفر الله، وأخذ يكررها، ثم قال صلاح الدين: لا يعلم بهذا أحد!! (حتى لا ترتبك أمور المواجهة)!!.

وطلب شيئاً من (الماورد) فَغَسَل عينيه، ثم طلب الطعام، وحضر الناس، ولم يعلم ذلك أحد حتى عاد العدوُّ إلى يافا، وعُدنا نحن إلى النطرون، وهو مقرّ ثقلنا، أي مقر قاعدة الانطلاق كما يقول ابن شداد المؤرخ».

■ ولو تصفَّحنا تاريخ صلاح الدين في مواجهة الحروب الصليبية، منذ وطئت أقدامه أرض مصر، وخلال توحيده للشام ومصر - لوجدنا أخلاقاً سامية، وإنسانية ورحمة مع حكمةٍ وعقل وذكاء وغيرة على دين الله.

لقد كان كثير العفو عن المسيئين إذا ظهر له صدقهم في الندم، وكان كثير العطف على الضعفاء، سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين، مكرماً لكبار أعدائه إذا كانوا محترمين في عداوتهم، عير منحطّين في تعاملهم مع المسلمين أثناء الحروب (مثل أرباط الذي كان ينوي هدم الكعبة ويسبّ الرسول علناً أمام المسلمين).. وكان يستجيب لكل استغاثة، وله في ذلك قصص معروفة مشهورة، ومن أشهرها ما يروى من أنه كان للمسلمين سرايا تدخل إلى العدو فتأسر منه كل شيء وجدته، وفي ذات ليلة: أسرت سريةٌ طفلاً رضيعاً له ثلاثة أشهر، وسارت به حتى أتت إلى خيمة السلطان رحمه الله وعرضَتْه عليه، (وكان أفراد هذه السرايا يعرضون على السلطان كلَّ ما يأخذونه أو يأسرونه، فيثيبهم ويعطيهم

ما أخذوه) لكن لما افتقدت الطفل أمُّه باتت مستغيثةً بالويل والثبور في طول تلك الليلة، حتى وصل خبرها إلى ملوكهم، فقالوا لها: «إن صلاح الدين رحيم القلب، وقد أذنا لك في الخروج إليه، فاخْرجي واطلبيه منه، فإنه يردّه عليك» فخرجت تستغيث ببعض قادة المسلمين، فأخبرتهم بواقعتها بترجمانٍ كان يترجم عنها، فأطلقوها، وأنفذوها إلى السلطان، فأتَتْه، وهو راكب، فبكَتْ بكاءً شديداً، ومرغت وجهها في التراب، فسأل عن شكواها، فأخبروه، فَرَقَّ لها، ودمعت عيناه، وأمر بإحضار الرضيع، فمضوا فوجدوه قد بيع في السوق، فأمر بدفع ثمنه إلى المشتري وأخذه منه، ولم يزل واقفاً رحمه الله حتى أحضروا الطفل، وسُلِّم إليها، فأخذتْه وبكت بكاءً شديداً وضمَّته إلى صدرها، والناس ينظرون إليها ويبكون، فأرضعتْه ساعة، ثم أمر بها فحُمِلتَ على فرس، وأُلحِقَتْ بعكسر الأعداء مع طفلها».

ويعلق ابن شداد على هذا الموقف قائلاً:

«فانظر إلى هذه الرحمة الشاملة لجنس البشر، اللهمّ إنك خَلَقْتَه رحيماً فارحمه رحمةً واســـعة من عندك ياذا الجلال والإكرام، وانظر -كذلك- إلى شهادة الأعداء له بالرقة والكرم والرأفة والرحمة عندما وجهوا المرأة للذهاب إلى صلاح الدين.. وكان صلاح الدين مع المرأة كما وصفوا.. وهكذا كان صلاح الدين دائماً.. آية من آيات الله في التسامح والعفو والرحمة، مع الشجاعة والزهد والقوة.. فرحمه الله رحمة واسعة.. والفضل ما شهدت به الأعداء.

«٣»

الوفاء بالعهد مع الأعداء

■ نحن نعاهد الناس ونلتزم بأمر الله الذي يقول لنا ولرسوله عليه السلام: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾.

وقد أثبت تاريخنا هذه الحقيقة، بينما جبلت القوى المعادية للإسلام على خيانة العقود، واعتبارها مرحلية، وما تفعله قوى العلمانية مع العرب الذين استعانت بهم ضد الشيوعية ثم غدرت بهم دليل على ذلك، كما أن ما وقع في محاكم التفتيش في الأندلس من أقوى الأدلة أيضاً.

لقد أخضعت الجيوش الإسلامية أقواماً مختلفة منحها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الأمان، وأبقى على ملكيتها لخيراتها لقاء تعويض مادي أو مالي متفاوت في أهميته، وذلك مثل قبيلة خيبر، وسكان البحرين من المجوس واليهود الذين اعتنق أميرهم الإسلام، وسكان شمالي الجزيرة العربية من المسيحيين في دومة وأيلة، ومن اليهود في أبروح ومكوع.. وغير ذلك.

كما عقد النبي عليه السلام مع رهبان (ديرسانت كاتريت) في سيناء ميثاقاً يمنحهم بموجبه حرية كبيرة.

وأيضاً كما يقول (بوازار) عقد النبي محمد صلى الله عليه وسلم اتفاقاً مع مسيحيي نجران اعتبره فقهاء المسلمين نموذجاً للتنظيمات الصالحة للتطبيق على الخاضعين للإسلام.

لقد أصدر النبي لدى زيارة أحد الوفود قراراً يتعهد فيه بحماية سكان مدينتهم وجوارها، وتأمينهم على نفوسهم وممتلكاتهم وضمان حريتهم في التمسك بعقيدتهم وعبادتهم.

وقد شملت الحماية والضمان جميع السكان، في حين ظلت مسؤولية الانتهاكات مسؤولية فردية يؤاخذ عليها المجرم وحده، فلا يؤخذ عليها أي معاهد بجريرة آخر، فضلا عن أن يؤخذ قوم بجريرة أفراد مغرضين كما يفعل النظام العالمي الجديد.

وكانت هناك أحكام خاصة تمنع تدخل المسلمين في النظام الكهنوتي المسيحي، وتحظر الإساءة إلى أهل الذمة وتحظر كل شكل من أشكال الاضطهاد.

وهذا الاعتراف لا نقوله نحن وإنما يقوله مارسيل بوازار في كتابه (إنسانيات الإسلام ص ١٩٢).

«ويؤكد التاريخ أن المسلمين لم ينكثوا عهداً، ولم يخلُّوا بالتزام التزموه إلا بعد أن غدر أعداؤهم»..

ولم يمكروا بالناس ليستعمروهم ويستولوا على خيراتهم تحت شعارات كذوب.. وكيف يقع هذا من مسلم والإسلام يرفض اجتماع الإيمان مع الكذب، وهو يعلم المسلمين أيضاً بقوله ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ ..!! وفي المقابل: كم كذب أعداؤنا؟.

وكم مكر آعداؤنا، وكم اخترعوا من طرائق وخرائط للسلام، وكلها مكر وأوهام.. بينما كنا نحن دائماً ملتزمين بعهودنا، مطبقين لشرع ربنا الذي يأمرنا في كتابه الكريم بقوله: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾..

هذه عهودنا.. دين وحضارة وقيم نبيلة..

وتلك عهودهم مكر وخداع وأهداف تبرر كل وسيلة!!.

«٤»

الشعوب لا تدفع الثمن

تقوم علاقة الإسلام بالشعوب على أصالة السلام والعدل والتراحم..!! والمسؤولية في الإسلام وكذلك العقوبة فرديتان لا يجوز تعميمها على الأبرياء، وبهذا الميزان تعامل الإسلام مع العالم كله.

لقد أثار دهشة الرحالة الأوروبيين ولا سيما في القرن الثامن عشر أن الأجنبي في مفهوم المسلمين هو (غير المؤمن بالإسلام)، فكأن كل مسلم هو مواطن في كل بلد مسلم!!.

ومع ذلك فإن هذا الأجنبي -أي غير المسلم- لا يمكن اعتباره عدواً حتى ولو كان من دار حرب، لأن الحرب تكون حسب المفهوم الإسلامي بين الحكومات لا بين الشعوب.

وحتى في زمن الحرب الناشطة بين الإسلام والإقليم الذي رعاياه هذا الأجنبي، فإنَّ بوسع هذا الأجنبي دخول دار الإسلام والتنقل فيها والإقامة مؤقتاً هو وأسرته، دون أن يتعرض للخطر أو الإزعاج.

بل إن الحماية الممنوحة له تجعله يفيد من الاعتراف بشخصيته، وتكفل له سلامة شخصه وأمواله (بوازار إنسانية الإسلام ص ٢٣٥)..

وهكذا يظهر جلياً ما يحاول أعداء الإسلام إخفاؤه فيما يتصل بنظرة الإسلام للشعوب، وللتفاعل الحضاري السلمي، ولتبادل المصالح، وكيف أن المواطنين من الدول المحاربة الذين يطلبون العلم

أو التجارة تكفل لهم الدولة الإسلامية الأمان واحترام حقوقهم الإنسانية، حتى في هذه الحالة الشاذة.. حالة وجود حرب بين دولتهم والدول المسلمة!!.

ونأخذ من هذا بعداً آخراً خطيراً.. هو: أن الإسلام لا يجعل الشعوب تدفع ثمن تصرفات قياداتها أو حكوماتها..

فالشعوب صانعة الحضارة تظل بمنأى عن هذه الأوضاع الاستثنائية، شريطة أن يكون هؤلاء الداخلون إلى البلد المسلم بمنأى عن الأعمال العسكرية أو السياسية!!.

هذا هو موقف الإسلام ديناً وحضارة.

فإذا تذكرنا هذا ثم قارنا بين هذا السلوك الحضاري وما يقع الآن من (حضارة العولمة) وكيف تفقد ملايين كثيرة حقوقها، مع أنها تحمل جنسيات هذه الدول الاستعمارية، بل كيف تدفع أوطان كاملة ثمن أخطاء بعض الأفراد المأجورين أو المعتوهين الذين يستخدمون العنف ضد بعض الأوطان.. أو الأشخاص!!».

إن حكمة الإسلام أذكى من كل الشعارات، وإن (فردية) المسؤولية في الإسلام ميزان من أروع ما عرفت البشرية.. وهذا ما تفتقده حضارة الظلام والشعارات المكذوبة التي تخطط لإبادة الإنسانية متذرعة بأخطاء فردية تصطنعها إذا لم تجدها.. وتلك أحط صورة عرفها مستنقع الحقد البشري الذي سماه القرآن (أسفل سافلين).

«٥»

دار العهد والأمان والحياد

يزعم بعضهم أنه لا يوجد لدى المسلمين إلا دار حرب ودار إسلام، وهي أكذوبة مثل الأساطير المعاصرة الشائعة عن المسلمين وعن دينهم.

فالحق أن (دار الحياد) أو (دار الأمان) أو (دار العهد) تشمل المساحة الأكبر من علاقات المسلمين.. إنها العالم الأكبر..

وهناك ثلاثة أمثلة عن عهد الأمان أو دار العهد، أو حسب تسمية مارسيل بوازاد (دار الحياد) المعترف به، وهي مما أقره نظام العلاقات الدولية في الإسلام بعيداً عن حصر بعضهم لهذا النظام في علاقته الخارجية في إطاريْ (دار السلام) و(دار الحرب). فقط.. فهو عهد الأمان أو دار الحياد وهو الضلع الثالث الأساسي في نظرة ديننا وحضارتنا للعالم.

ومازال التاريخ يحفظ موقف المسلمين من الحبشة (أثيوبيا حالياً) التي لم تظهر منها في قرون المجد الإسلامي ميول عدوانية.. وكذلك كان الحال بالنسبة لأهل النوبة في جنوب مصر الذين عقدوا معاهدة التزموا بها التزاماً كاملاً.. والأمر نفسه في جزيرة قبرص.

وكان من نتيجة ذلك أن أنزلت الأمة الإسلامية الحبشة منزلة وجنبتها أي صراع؛ لأنها وقفت من جهة منذ الأيام الأولى في وجه اضطهاد المؤمنين بتقديمها الملجأ للمسلمين المهاجرين من مكة، ولأن ملكها اعترف من جهة ثانية بالشريعة الإلهية وبنبوة محمد وإن لم يفرض ذلك على شعبه!!.

وأما التوبة فقد التزمت بالمعاهدة -كما أشرنا- وكانت معاهدة تجارية وحضارية، وأما جزيرة قبرص فلم تكن منتسبة إلى أي من (الدارين)، وإنما كانت خاضعة لتبعية مزدوجة تجاه بيزنطة والإسلام في وقت واحد، فهي دار حياد!!.

وهذه الأمثلة الثلاثة (كما يؤكد مارسيل بوازار) توضح وتدعم النظرية القائلة: بأن ادعاء أن الإسلام يقسم العالم إلى قطبين فقط: إما دار حرب، وإما دار إسلام -ادعاء كاذب، وهو جائر وفاسد، وكذلك فإن العداوة التي تستتبع هذا التقسيم لا تستند إلى تجربة حقيقية أو دليل موضوعي.

والحق أن الحضارة (الأورو - الأمريكية) هي التي تقسم العالم إلى دار حرب ودار سلام، وكل من ليس معها فهو دار حرب، فإما أن تكون معها أو أنت بالضرورة ضدها.. والأحداث الأخيرة وتداعياتها أكدت هذا.. ويؤكد هذا أيضاً نظرية (الصدام الحضاري) -الإجباري في رأيهم - والتي ينبني عليها أن يكون هناك (آخر) (عدو) لضمان حيويتهم وتقدمهم عن طريق الصراع معهم وليجربوا فيه نتائج تطوير أسلحتهم!!.

ومع ذلك يصفون غيرهم بما فيهم، ويشوهون دينه وحضارته!!.

وبأعلى صوت نقول: إننا لا نحتاج إلى عدو، ولا نرفض أحداً رفضاً عنصرياً أو دينياً ولا نؤمن بالصدام الحضاري.. بل نتمنى أن يكون العالم كله خالياً من دار الحرب وأن يكون فقط دار إسلام.. ودار عهد، وكلاهما يشمله قول الله تعالى لنبيه عليه السلام:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾.. كل العالمين.

«٦»

لا قتل للأطفال في الحروب

استغل الأرمن من مواطني الدولة العثمانية في الحربين العالميتين الظروف السيئة للدولة العثمانية شعباً وحكومة، ولم يقدروا للمواطنة حقها، كما أنهم لم يذكروا أنهم يعيشون في هذه الدولة منذ قرون حياة آمنة مطمئنة.. وبتأثير من القوى الأجنبية أعلنوا التمرد - ليس على الحكومة فحسب - بل على الشعب المسلم البرئ، فهاجموا القرى وقتلوا الأطفال والنساء والشيوخ.. وعبثاً حاولت الدولة العثمانية كبح جماحهم، إلا أن القوى الأجنبية كانت تغذي فيهم روح الحقد والخيانة لحقوق الوطن، وتزكي فيهم الروح الصليبية.. فاستمروا في إغارتهم على القرى المجاورة لهم والمتاخمة للحدود الروسية..!!.

فاضطرت الدولة العثمانية للسماح للمسلمين بالدفاع عن أنفسهم ومعاملة الأرمن بالمثل.

فانتشرت بين الأتراك المسلمين والأمن مذابح جماعية أبيدت فيها قرى بأكملها.. وكان الأطفال والنساء والشيوخ من جملة وقود هذه المعارك!!.

وقد وقف الداعية التركي المسلم الكبير الشيخ سعيد النورسي (بديع الزمان) ضد هذا الأسلوب. وحذر المسلمين من مغبة المعاملة بالمثل، كما منعهم من قتل الأطفال حتى ولو قتل الأرمن أطفالهم لأن؛ هذا ليس من أخلاق الإسلام الحربية.. فالأطفال الأبرياء لا ذنب لهم!!.

وقد ذكر بديع الزمان سعيد النورسي المسلمين بما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام من وصايا للجيوش، وبما قال أبو بكر، وغيرهما.

فامتثل المسلمون الأتراك لأوامر الإسلام وكفوا عن قتل أطفال الأرمن عندما يهاجمون قراهم!!.

ويقال: إن بعض الأرمن تأثروا بهذا السلوك الإنساني الإسلامي.. وحاولوا كبح جماح قومهم..

لكن الحقد الصليبي كان أقوى.. فقتل كثير من أطفال المسلمين.. ولم يندم المسلمون على ما فعلوه.. لأنهم كانوا ينفذون تعاليم رسول الإسلام.. عليه الصلاة والسلام..

«٧»

حتًى في التآمر على قتل عمر.. تعاملنا بإنسانية!!

تكاد الدراسات التاريخية الحديثة تَتَّفق على أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قُتل نتيجة مؤامرة ذات تدبير محكم، فليس (فيروز أبو لؤلؤة المجوسي) إلا الأداة المُنَفِّذة، بينما كان الهرمزان الذي كان حاكماً فارسياً على الأهواز. وجُفينة أحد نصارى الأنبار هما العقْلين المدبرين والمخططين.. ويروى أن عبدالرحمن بن عوف حين رأى السّكين التي قتل بها عمر قال: رأيت هذه أمس مع الهرمزان وجُفينةالنصراني، فسألتهما ما تصنعان بهذه السكين؟ فقالا: نقطع بها اللحم، فإنا لا نمس اللحم، كما روى عبد الرحمن بن أبي بكر أنه رأى أبا لؤلؤة والهرمزان وجفينة قبل مقتل عمر يتحدثون خفية، فلما فاجأهم قاموا وقوفاً فسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه، وكان هذا الخنجر هو الذي حمله أبو لؤلؤة لقتل عمر وقتّل نفسه عندما أحيط به (كما يقول السيوطي في تاريخ الخلفاء).

والإنسان يسأل نفسه: ماذا فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى يتآمر عليه هؤلاء الثلاثة ومن وراءهم، وهو معروف بالصرامة والعدل؟.

السؤال الثاني الذي يجول بالخاطر أيضاً: ما هي ردود الأفعال المعروفة في مثل هذه الأفعال؟!!.

وحسبنا أن نشير هنا إلى أن الجندي السيخي الذي قتل إنديرا غاندي الهندوسية تسبب في قتل أربعة آلاف من طائفته في ليلة واحدة نتيجة الغضب الهندوسي العارم في الهند!!.

لكن ما حدث في قتل عمر: أن عمر بن الخطاب قال: إذا عشت فالأمر لي وإذا مت فالقصاص، رجل برجل!!.

لكن ابنه عبيد الله بن عمر عندما بلغه الخبر وعرف بالمؤامرة خرج ثائراً بسيفه، فقتل رأس المؤامرة الهرمزان ثم قتل جفينة الضلع الثاني في المؤامرة.. وغلبه الانفعال فقتل ابنة لقاتل أبيه أبي لؤلؤة المجوسي، لكن الصحابة رضوان الله عليهم قاموا باعتقاله، بل وظهرت آراء تطالب بالقصاص لأنه حكم -ونفَّذ -القتل على المتآمرين دون محاكمتهم!!.. فلما تولى عثمان بن عفان رضي الله عنه الخلافة رأى أن تدفع الدية للمقتولين المتآمرين، ويوقف بالتالي نزيف الدم والثأر وتنتهي الفتنة.

هذا هو عدل الإسلام، وهذا هو قصاصه وحقنه للدماء، ولا سيما بعد أن فكر بعض المسلمين في قتل سبايا المجوس الموجودين بالمدينة، انتقاماً من أبي لؤلؤة الخائن المجوسي!! فكان تصرّف عثمان ذي النورين عدلاً ورحمة.. وتعبيراً عن موقف من أعظم المواقف في أصالة إنسانيات الإسلام.. دين العدل والحق والإنسانية!!.

«٨»

القدس بين إنسانية المسلمين ومجازر غير المسلمين

■ من المفروض -قانوناً وعرفاً- أن يتحقق للمدن المقدسة ما هي جديرة به من التوقير، في حالات الحرب والسلم على السواء!!.. لكن دروس التاريخ تقول لنا غير ذلك.. فلننظر ماذا فعلت حضارة أوروبا الصليبية وماذا فعلت حضارة الإسلام في القدس!!.

■ فلعدة أيام سابقة كانت جيوش الصليبيين (الباسلة) التي كانت فيها، عرفت بحملة الأمراء قد اقتحمت أسوار القدس، ودخلتها وقتلت معظم من فيها من السكان.. ولدرجة أنهم في ساحة المسجد الأقصى قتلوا أكثر من سبعين ألفاً (كما يذكر المؤرخ المسلم ابن الأثير)!!.

وذلك في يوم الجمعة ١٥ حزيران ١٠٩٩ (٤٩٢هـ).

ويصف (وليم الصوري) المجزرة قائلاً:

لقد كانت المجزرة التي ارتكبت في كل مكان من المدينة مخيفة جداً، وكان سفك الدماء رهيباً جداً لدرجة عانى فيها حتى المنتصرون من أحاسيس الرعب والاشمئزاز.

ويقول: وعلم القادة الآخرون، بعد أن كانوا قد قتلوا من واجهوا في الأجزاء المختلفة من المدينة -أن الكثير قد هربوا للالتجاء في الأروقة المقدسة (الفرسان والرجالة) فقتلوا جميع الذين كانوا قد لجؤوا إلى هناك، ولم تظهر أيٌّ شفقة لأي واحد منهم، وغمر المكان كله بدمِ الضحايا.

هذا هو المشهد كما التقطته (كاميرا) مؤرخينْ: أحدهما مسلم هو ابن الأثير، والآخر نصراني هو وليم الصوري، وقد جئنا بهما معاً حتى لا نتهم بالتحيّز أو الانتقاء!!.

■ فماذا يقول درس التاريخ فيما يتصل بمشهد تعامل المسلمين مع المدينة نفسها (القدس) عندما فتحوها.. يقول التاريخ:

إنه في يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٢ هـ، فتح صلاح الدين القدس (١٢/١٠/١١٨٧م)، (أي بعد ثمان وثمانين سنة ميلادية) فذكر صلاح الدين للصليبيين المحاصرين ما فعله آباؤهم بالمسلمين سابقاً في القدس..

لكن (مجرد التذكير) جعلهم يهددون بالانتحار انتحاراً جماعياً...

لأنهم كانوا يعرفون جيداً سلوك أجدادهم الدموي في القدس قبل نحو تسعين سنة هجرية!!.

لكن صلاح الدين الأيوبي فاجأهم بإصدار عفو عام، وكأنه يستلهم ما فعله الرسول صلى الله عليه في فتح مكة عندما قال للمشركين: اذهبوا فأنتم الطلقاء لوجه الله تعالى.. إنه سلوك حضارة التسامح والرحمة النابعة من الأمر الإلهي لنبي الإنسانية ولأتباعه بعده: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين».

■ وما فعله الصليبيون بالأمس - بالقدس- يفعله اليهود اليوم، بحماية صليبية دولية.. فالتاريخ يعيد نفسه، والأخلاق هي الأخلاق، ومع ذلك يتهمون المسلمين بما جبلوا عليه في الماضي.. وفي الحاضر..

وهكذا كان دأبهم.. يقتلون الملايين، ويخترعون أسلحة الدمار الشامل، ويتهمون الضحايا.. فحسبنا الله فيهم ونعم الوكيل.

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة